تاريخ ما بين السطور

إمبراطورية الجنون و الحب

رمضان مصطفى سليمان

حين تتحوّل السيرة إلى مسرحٍ من الظلال والنار

منذ زمنٍ بعيد، ظلّ في النفس شوقٌ خفيّ إلى فتح صفحة هذا الرجل، لا بدافع الفضول وحده، بل لأنّ بعض الشخصيات لا تعبر التاريخ كما يعبر الناس، وإنما تترك فيه أخاديد عميقة، كأنّها كُتبت لتكون مادةً للحكاية، ووقودًا للدراما، ومرآةً تتأمل فيها الأجيال وجوه الطموح والخوف والقوة والانكسار.

كان الرجل أشبه بعاصفةٍ تسير على قدمين؛ يحمل في داخله مدنًا من الأحلام المشتعلة، وصحارى من الشكوك الصامتة. يبتسم للناس بوجهٍ، بينما تدور خلف عينيه معارك لا تهدأ. وكان عقله مسرحًا مزدحمًا بالأصوات المتعارضة: صوتٌ يدعوه إلى المجد، وآخر يذكّره بثمنه الباهظ، وثالثٌ يسأله في لحظات الصمت الثقيلة:

إلى أيّ حدّ يستطيع الإنسان أن يمضي قبل أن يفقد نفسه في الطريق ؟

ولعلّ هذا الصراع الداخلي هو ما منح شخصيته ذلك البريق الدرامي النادر؛ فلم يكن بطلًا خالصًا ولا شريرًا كاملًا، بل إنسانًا يحمل تناقضات عصره كلّها، ويصارعها في أعماقه كما يصارعها في العالم من حوله. كان يعرف أنّ التاريخ لا يذكر المترددين، لكنه كان يدرك كذلك أنّ كل خطوة نحو القمة تقتطع جزءًا صغيرًا من الطمأنينة التي يسعى إليها البشر طوال أعمارهم.

وحين نتأمل مسيرته، نشعر أنّنا لا نقرأ أحداثًا جامدة، بل نشاهد فصولًا متلاحقة من مسرحية كبرى؛ تتبدل فيها الوجوه، وتتغيّر التحالفات، وتتداخل فيها المصالح بالعواطف، والطموحات بالمخاوف، حتى يصبح من العسير التمييز بين ما اختاره الرجل بإرادته، وما اختاره له الزمن القاسي الذي ألقاه في قلب العاصفة.

وكان حواره مع نفسه أشدّ ضراوةً من حواره مع خصومه. ففي الليالي التي يهدأ فيها صخب العالم، كان يواجه السؤال الذي يهرب منه الجميع :

هل أقود قدري ، أم أنّ قدري هو الذي يقودني ؟

ثم ينهض من صمته ، كما ينهض المقاتل من بين غبار المعركة ، وقد اتخذ قراره، أو أقنع نفسه بأنه اتخذه.

إنّ شخصيته ، بما حفلت به من تناقضاتٍ وصراعاتٍ وتحولات، كانت كنزًا دراميًا لا يُقاوم. ولو أنّ الأقدار جمعت بينه وبين عصر ويليام شكسبير، لما تركه الشاعر الكبير يعبر صفحات التاريخ في صمت، ولانتزع من سيرته واحدةً من أعظم مآسيه الإنسانية؛ مسرحيةً تتجاور فيها السلطة مع الهشاشة، والطموح مع الخوف، والانتصار مع الوحدة، ويقف فيها البطل في نهاية المطاف أمام نفسه، لا أمام العالم، ليكتشف أنّ أصعب المعارك جميعًا هي تلك التي يخوضها الإنسان داخل قلبه.

وهكذا، فإنّ فتح صفحة هذا الرجل ليس مجرد عودة إلى الماضي، بل هو دخولٌ إلى متاهة النفس البشرية نفسها ؛ إلى ذلك المكان الذي تتجاور فيه الرغبة والرهبة، القوة والضعف، النور والظل، حيث يولد التاريخ أولًا في أعماق الإنسان، قبل أن يُكتب على صفحات الكتب.

مترنيخ يبتسم في آخر المرايا
حوار مع الرجل الذي أراد أن يوقف الزمن

رغم تلك الرغبة الفنية العاتية التي كانت تدفعنا إلى فتح صفحة الرجل، والغوص في دهاليز روحه، والتجول بين أروقة القرن الذي حمل اسمه كما تحمل السفن أسماء بحارها، فقد كنا نتردد في الاقتراب منه، ونؤجل الموعد معه مرة بعد أخرى، كأننا نؤجل لقاء قدر لا نعرف إن كان سيمنحنا الحكمة أم يورثنا القلق.

كنا نتقيه، ونرجو في الوقت نفسه أن يتقانا.

تماماً كما كان أسلافنا يتحاشون الاقتراب من سيرة الشاعر العربي ابن الرومي، ذلك الرجل الذي التصقت به لعنة الحزن حتى خيل للناس أن ظله وحده قادر على إطفاء مصابيح البيوت وإذبال أزهار الحدائق.

كنا نضحك من الخرافة ، لكننا لا نجرؤ على تحديها.

وكان مترنيخ، كعادته، يقرأ ما يدور في العقول قبل أن يقال على الألسنة.

رفع رأسه قليلاً، واستند إلى ظهر مقعده العتيق، ثم ارتسمت على شفتيه تلك الابتسامة التي لا يعرف المرء أهي ابتسامة رجل واثق من نفسه أم ابتسامة سياسي أمضى عمره كله يراقب البشر وهم يخفون أفكارهم وراء الكلمات.

قال في مرح متزمت، يشبه ذلك التناقض الذي لازمه طوال حياته الطويلة الحافلة بالمؤتمرات والتحالفات والانتصارات السياسية :

ولماذا كنتما تتقيان فتح صفحتي، رغم إعجابكما المعلن بشخصيتي ؟

تبادلنا النظرات. كان السؤال بسيطاً، لكن الإجابة لم تكن كذلك.

تقدمت صديقتي بالكلام ، وهي تنظر إليه نظرة الباحث الذي يحترم موضوع دراسته، لكنه لا يغفر له أخطاءه التاريخية.

قالت :

لأنك تعلم الأسباب أكثر منا يا أمير مترنيخ. أنت لا تمثل رجلاً فقط، بل تمثل عصراً كاملاً من تاريخ العالم. عصراً نرجو ألا يعود أبداً.

صمتت لحظة ثم تابعت :

أنت تمثل زمن الخوف من الحرية ، وزمن الارتياب من الإنسان، وزمن القصور التي كانت ترتجف من فكرة واحدة يهمس بها طالب في جامعة أو شاعر في مقهى. تمثل عصر الأوتوقراطية الصلبة، وعصر الحق الإلهي للملوك، والعروش التي كانت ترى في إرادة الفرد الحر جريمة تستحق العقاب.

لم يبد على وجهه الغضب. على العكس. بدت عليه علامات التسلية.

رفع حاجبه الأيسر قليلاً، و قال ساخراً :

كأنما لا تعيش بعض بلاد عالمكن، في أواخر القرن العشرين ، أو حتى بعده، النسخة نفسها التي تنكرنها علينا ؟

ثم مال إلى الأمام وأضاف :

أخبراني بصدق... كم من الشعارات تغيرت بينما بقيت السجون كما هي؟ وكم من التيجان سقطت بينما ظلت الأوامر تصدر بالطريقة نفسها ؟

ساد الصمت للحظات.

كان صوته هادئاً، لكن كلماته كانت تتحرك ببطء يشبه حركة السكاكين فوق الزجاج.

قلت محاولاً الهروب إلى مزحة قديمة :

ليس التاريخ وحده ما كان يخيفنا منك يا صاحب السمو ، بل هناك أيضاً ذلك النحس الذي يقال إنه يلاحق كل من يتصل بك أو يقترب من حياتك.

ضحك. ولم تكن ضحكته عالية. كانت ضحكة رجل يعرف أكثر مما يقول.

قال : ما تسمونه نحساً لم يصب إلا أعدائي.

ثم رفع إصبعه كما يفعل المعلم حين يصحح معلومة لتلاميذه. أما أصحابي، أما أحبابي، فلم ينالهم مني إلا الخير والدفء والوفاء.

وتابع بنبرة أهدأ :

دعوا معاركي مع الأعداء جانباً ، واتركوا المؤتمرات والخرائط والتحالفات لبعض الوقت، وتعالوا نقص عليكم شيئاً من أجمل ما حملته حياتي من حكايات الأحباب.

ابتسمت صديقتي و قالت : تقصد الحبيبات.

ضحك مترنيخ مرة أخرى.

كانت الضحكة هذه المرة أكثر شباباً من صاحبها.

قال : وهل هناك في الدنيا ما هو أمتع من تلك الأحاديث ؟

ثم أضاف وهو ينظر إلى الفراغ البعيد :

أليس من حق قرائكم عليكم أن ترفهوا عن قلوبهم قليلاً؟ الناس يتعبون من الحروب والسياسة والدماء والمعاهدات. قدموا لهم شيئاً ناعماً... شيئاً يشبه الموسيقى التي كانت تعزف في القصور بعد انتهاء المؤتمرات.

قالت صديقتي : إذن اختر لنا أنت ما تريد أن نرويه من نزوات قلبك العنيد، ذلك القلب الذي ظل مفتوناً بالجمال حتى آخر العمر.

ثم ابتسمت و أضافت :

بالمناسبة، كم كان عدد الجميلات في حياتك يا أمير ؟

اتسعت ابتسامته.

و قال : العدد في الليمون كما يقول مثلكم الشعبي.

ثم استدار نحو النافذة كأنما ينظر إلى سنواته الماضية المتناثرة وراء الزجاج.

وهل يعد الإنسان الربيع كلما عاد إليه ؟ وهل يحصي البحار عدد الأمواج التي لامست شواطئه ؟

كان صوته قد تغير. لم يعد صوت السياسي الذي يفاوض الدول، بل صوت رجل عجوز يتأمل الطرق التي سار فيها قلبه.

قلت : لكن الأمر يثير الدهشة حقاً.

نظر إليّ متسائلاً.

فقلت : كنت أشهر وزير خارجية في العالم كله، وفي أكثر مراحل أوروبا اضطراباً. كانت القارة القديمة تخرج من حروب نابليون كمدينة تحاول جمع حجارتها بعد زلزال هائل، وكانت الخرائط تمحى وتولد من جديد تحت يديك، وكنت أنت المهندس الأكبر لذلك البناء السياسي كله.

توقفت قليلاً ثم سألت : فكيف كنت تجد الوقت لترضي قلبك بالحماسة نفسها التي كنت ترضي بها عقلك ومواهبك السياسية ؟

ابتسم. لكن ابتسامته هذه المرة كانت تحمل شيئاً من التعب.

قال : لأنكما تنظران إلى الحب والسياسة كأنهما نقيضان.

ثم هز رأسه ببطء.

والحقيقة أنهما متشابهان أكثر مما تتصوران.

نظرنا إليه في دهشة.

فأكمل :

السياسة محاولة لتنظيم العالم الخارجي، والحب محاولة لفهم العالم الداخلي.

وصمت لحظة.

وفي الحالتين، يفشل الإنسان أكثر مما ينجح.

كانت كلماته تتساقط ببطء ، كأوراق الخريف فوق طريق قديم.

ثم قال :

هل نسيتما أنني عشت طويلاً ؟

كان في صوته شيء من الاعتزاز، وشيء آخر من الحنين.

لقد منحني الزمن سنوات أكثر مما منح معظم معاصريّ. رأيت أجيالاً تولد وأخرى ترحل. رأيت إمبراطوريات ترتفع كالشمس ثم تغيب كأنها لم تكن.

ثم ضحك :

و حتى وأنا في الثمانين ، والروماتيزم يعبث بمفاصلي أبشع العبث، كان قلبي يقفز فرحاً مع كل حب جديد.

ساد الصمت.

كان المشهد كله غريباً.

رجل تجاوز الثمانين يتحدث عن الحب كما يتحدث صبي يكتب أول رسالة غرام في حياته.

قال : كانت ركبتاي تخوناننني أحياناً، لكن قلبي لم يفعل أبداً.

ثم أضاف : الجسد يشيخ على مهل، أما القلب فلا يعرف العمر إلا إذا أقنعه صاحبه بذلك.

في تلك اللحظة بدا لنا مترنيخ أقل شبهاً بالسياسي الذي أخاف أوروبا، وأكثر شبهاً بإنسان عادي يخاف من الوحدة مثل بقية البشر.

ولأول مرة خطر لي أن التاريخ قد يكون ظالماً أحياناً.

إنه يحتفظ لنا بقرارات الملوك، لكنه ينسى ارتعاش أيديهم وهم يكتبون رسائل الحب.

يحفظ لنا نصوص المعاهدات ، لكنه يضيع الكلمات التي قالها رجل لامرأة أحبها ذات مساء.

ويخبرنا بعدد الجيوش التي تحركت ، لكنه لا يخبرنا كم قلباً كان يرتجف في تلك الليلة نفسها.

قلت مبتسماً :

يبدو أنك تفوقت على كازانوفا ودون جوان وبايرون معاً.

ضحك مترنيخ طويلاً.

ثم قال : لا يا صديقي.

وصمت قليلاً.

أولئك الرجال ماتوا في عز الشباب.

ثم أضاف بصوت خافت :

أما أنا فقد كان العمر أمامي طويلاً بما يكفي لكي أجدد شباب قلبي مرة بعد أخرى.

مد يده نحو مفاصل أصابعه المتعبة. وإن عجزت عن أن أجدد شباب مفاصلي.

كان ينظر إلى يديه كما ينظر الجنود القدامى إلى أسلحتهم بعد انتهاء الحروب.

ثم قال فجأة : أتدريان ما المشكلة الحقيقية ؟

سألناه : ما هي ؟

قال : أن الناس يظنون أن الشيخوخة تبدأ حين يظهر الشيب في الشعر.

ثم هز رأسه نافياً.

الشيخوخة تبدأ يوم يكف الإنسان عن الدهشة.

ساد الصمت.

وأكمل : يوم يرى زهرة فلا يتوقف أمامها، أو يسمع موسيقى فلا تتحرك روحه، أو يلتقي امرأة جميلة فلا يشعر أن العالم أصبح أكثر إشراقاً للحظة واحدة.

كانت عيناه تلمعان بضوء بعيد.

و قال : حينها فقط يصبح الإنسان عجوزاً، حتى لو كان في العشرين.

ثم ابتسم ابتسامة صغيرة.

أما أنا فقد تأخرت الشيخوخة في العثور علي.

كان الليل يهبط خارج النافذة ببطء.

وشعرت فجأة أن الرجل الجالس أمامنا لم يكن يحاول الدفاع عن نفسه، ولا عن عصره، ولا عن سياساته.

كان يدافع عن شيء آخر. عن حق الإنسان في أن يكون أكثر من صورة واحدة. أكثر من لقب واحد. وأكثر من حكم تاريخي واحد.

فالسياسي الذي أخاف الثوار كان يحمل داخله عاشقاً.

والرجل الذي رسم حدود الدول كان يحلم أحياناً بأن يعيش داخل حدود قلب واحد.

أما ذلك الأمير الذي أمضى حياته يحرس استقرار أوروبا، فقد كان يخوض في داخله حرباً أخرى لا تنتهي بين العقل والعاطفة.

وربما لهذا السبب بالذات بدا لنا فجأة أكثر إنسانية. وأكثر قرباً. وأقل شبهاً بالتماثيل البرونزية التي تصنعها كتب التاريخ.

قال بهدوء : لا تحاكموا الرجال من لحظة واحدة في حياتهم.

ثم أضاف : فالإنسان قارة كاملة ، وليس مدينة واحدة.

و تابع : وفي داخلي ، كما في داخل كل إنسان ، كانت هناك دول كثيرة تتحارب وتصطلح وتثور وتستسلم.

ابتسمنا.

أما هو فظل ينظر إلى مكان بعيد لا نستطيع رؤيته. ربما كان يرى وجوهاً غابت منذ عشرات السنين. وربما كان يسمع ضحكات اختفت مع أصحابها. وربما كان يحصي خسائره الصغيرة التي لا يذكرها المؤرخون.

ثم قال بصوت بدا كأنه يأتي من آخر القرن التاسع عشر كله :

صدقاني...

إن أكثر الرجال قوة هم أكثرهم حاجة إلى الحنان.

وإن الذين يبدون قادرين على حكم العالم ، يعجزون أحياناً عن حكم قلوبهم.

ثم نهض ببطء.

واستند إلى عصاه.

و قال مبتسماً : أما الآن ، فهلا بدأنا الحديث عن النساء ؟ فالسياسة يا أصدقائي تجعل الأعمار أطول... لكن الحب وحده هو الذي يجعلها جديرة بأن تعاش.

حين أزهرت الورود فوق أنقاض العداوة

ساد الصمت لحظةً في القاعة العتيقة ، ذلك الصمت الذي يشبه وقوف الزمن عند حافة ذكرى قديمة ، ثم قال أحد الجالسين وهو يحدق في وجه العميد الذي بدت عليه آثار أعوام طويلة من المجد والانكسار معاً:

ما زلنا في انتظار أن تختار لنا حدثاً مثيراً من أحداث قلبك، أيها العميد.

ارتسمت على شفتي الشيخ ابتسامة غامضة، ابتسامة رجل يعرف أن أكثر الحروب ضراوةً ليست تلك التي تشتعل على الحدود، بل تلك التي تندلع داخل القلب.

رفع عينيه ببطء نحو النافذة، كأنه يبحث بين الغيوم عن وجهٍ ضاع منذ زمن بعيد ، ثم قال :

ما رأيكما في قصة حب ولدت بين أنقاض البغضاء ؟

تبادلت العيون النظرات المندهشة.

قال أحدهما : أهذا معقول ؟

ابتسم العميد من جديد، ولكن هذه المرة كان في ابتسامته شيء من الحنين وشيء من الأسى.

ولم لا ؟ ألا يقول الناس إن النار قد تخرج من قلب الجليد ، وإنه لا حب إلا بعد عداوة ؟

سألت الصديقة وقد اتسعت عيناها فضولاً :

ومن كانت تلك المحبوبة التي بدأت عدوة ؟

ساد الصمت لحظة أخرى. بدت على وجه العميد علامات حرج نادر، كأن الزمن أعاده فجأة إلى أيام الشباب.

ثم قال بصوت خافت : لورا أبرانتيس...

وتوقف.

كان الاسم وحده كافياً ليغير نبرة صوته. لم يعد صوت رجل عجوز يتحدث عن الماضي، بل صوت شاب ما زال يعيش اللحظة ذاتها رغم مرور العقود.

ثم تنهد قائلاً : ماذا لو أعفيتماني من هذا الحرج ، وتركتم صديقي العزيز ومؤرخ حياتي الكونت جرونوالد يرويها لكم؟ فلا أنا ولا لورا المجنونة كنا نخفي عنه شيئاً.

ابتسم الجالسون.

أما الكونت جرونوالد فظل صامتاً للحظة، وكأن الذكريات كانت تمر أمامه صفوفاً طويلة من الوجوه الراحلة.

قال أخيراً : كان ذلك الزمن زمناً غريباً... كانت أوروبا كلها تمشي فوق أرض تهتز تحت أقدامها، وكانت الإمبراطوريات العظيمة تبدو كقصور شامخة بنيت فوق طبقات من الثلج الرقيق.

ثم أضاف : وفي قلب ذلك العالم وقف رجل اسمه كليمان مترنيخ. لمع الاسم في الهواء كما تلمع أسماء الأساطير.

تابع الكونت : كان صديقي الأقرب ، وربما أكثر الرجال الذين عرفتهم ذكاءً وقدرةً على فهم السياسة. قضى أكثر من ستين عاماً يرسم خرائط أوروبا كما يرسم الرسام خطوط لوحته.

صمت قليلاً ثم ابتسم ابتسامة حزينة.

لكنه ، رغم صداقتنا الأسطورية ، لم يكن يشاركني الرأي في كل شيء.

سأله أحد الحاضرين : في قضية الديمقراطية ؟

أومأ الكونت برأسه.

نعم... هناك كانت المسافة بيننا واسعة كالمحيط.

اقترب من الموقد، ومد يديه نحو النار كأنه يحاول تدفئة ذكرياته البعيدة.

كان مترنيخ يرى أن الشعب يجب أن يطيع، وأن الدولة لا تعيش إلا بالاستقرار، وأن الاستقرار لا يتحقق إلا إذا بقيت السلطة في يد الإمبراطور والنخبة الحاكمة.

رفع رأسه و أكمل : كان يقول إن أقصى ما ينبغي أن يمنح للشعب هو حق التصفيق للقرارات بعد صدورها، لا حق صناعتها.

ضحك ضحكة قصيرة خالية من الفرح.

كان يرى أن البرلمان المنتخب بداية الفوضى ، وأن أول صندوق اقتراع سيكون أول مسمار في نعش الإمبراطورية النمساوية.

سأله أحدهم : وأنت يا كونت جرونوالد؟ ماذا كنت ترى ؟

نظر إليهم طويلاً قبل أن يجيب : كنت أرى الإنسان قبل الدولة ، والحرية قبل العروش ، والكرامة قبل التيجان.

ثم ابتسم.

ألا يكفي أنني كنت زعيم الثوار المطالبين ببرلمان منتخب انتخاباً حراً ؟

ساد الصمت.

وأردف بهدوء: لقد دفعت ثمن ذلك برصاص الإمبراطور نفسه.

ارتجفت الكلمات في الهواء.

لكن المفاجأة الأكبر لم تكن موته، بل الهدوء الذي قال به الجملة

كأن الموت كان مجرد محطة قصيرة في طريق طويل.

قال :

حدث ذلك بعد وفاة صديقي مترنيخ بسنوات، وقد حمدت الله يومها أنني لم أفجعه مرتين؛ مرة بخلافي معه، ومرة بخبر مصرعي.

رفع بصره نحو السقف.

لقد كان من أصدق الأصدقاء.

ثم أضاف بصوت خافت : لم يكن بيننا سر.

كنا نتقاسم الأفكار كما يتقاسم الإخوان الخبز. كنا إذا افترقنا عادت أرواحنا تبحث عن بعضها كما يعود الطير إلى عشه بعد رحلة طويلة في العواصف.

ثم التفت فجأة إلى الجالسين و سأل :هل رأيتماه ؟

قالت الصديقة : رأينا رجلاً مهدماً في الخامسة والثمانين.

أطرق الكونت برأسه ، ثم ابتسم.

لو رأيتماه وهو في العشرين لأدركتما لماذا كانت النساء يفقدن عقولهن عند رؤيته. كان طويلاً كأشجار الصنوبر في جبال النمسا. وكان يمشي كما يمشي الملوك الذين لا يحتاجون إلى تيجان ليعرف الناس أنهم ملوك. وكانت أناقته تبدو كأنها جزء من خلقته لا جزء من ملابسه. أما وجهه فكان يحمل ذلك التناسق النادر الذي يجعل الناس يلتفتون دون أن يعرفوا السبب.

قال أحدهم مبتسماً : أتصفه كأنه إله إغريقي.

ضحك الكونت :

لأنني لا أجد وصفاً أدق. كان يشبه أبوللو حين كانت الأساطير ما تزال تمشي فوق الأرض.

ثم أضاف : أما والده فقد كان أكثر الناس إيماناً بمستقبله.

فتح درجاً قديماً وأخرج ورقة صفراء.

في يوم مولد كليمان كتب والده في مذكراته :

اليوم جاء إلى الحياة من سيصبح أعظم وزير خارجية في التاريخ... ولدي كليمان مترنيخ.

ساد الصمت.

قال أحد الحاضرين : يا لها من ثقة عجيبة.

أجاب الكونت : لم تكن ثقة فحسب، بل كانت عقيدة أسرة كاملة.

ثم تابع : كانت الأسرة عريقة في عراقة غابات النمسا نفسها.

منها القادة والولاة والوزراء وحكام الأقاليم. وكان أفرادها يتوارثون المناصب كما يتوارث الناس أسماءهم.

أما شعار الأسرة فكان بسيطاً وقاسياً في آن واحد :

الله... النمسا... الإمبراطور.

توقف قليلاً ثم قال : لم يكن هناك مكان رابع في ذلك الشعار لكلمة الشعب.

ساد الصمت مرة أخرى.

ثم سأل أحدهم : وأين دخلت لورا أبرانتيس إلى هذه الحكاية ؟

ابتسم الكونت ابتسامة طويلة.

ابتسامة رجل يعرف أن التاريخ كثيراً ما يهزمه الحب.

قال : هنا تبدأ القصة الحقيقية.

كان كليمان يؤمن بالنظام كما يؤمن الكاهن بعقيدته.

وكانت لورا تؤمن بالحرية كما يؤمن العاشق بحبيبته.

كان كل واحد منهما يقف على الضفة المقابلة تماماً.

وكان لقاؤهما الأول أقرب إلى معركة منه إلى تعارف.

كانت لورا شابة مشتعلة الروح.

في عينيها بريق الثورة.

وفي كلماتها حرارة الشباب الذي يعتقد أنه قادر على تغيير العالم في ليلة واحدة.

أما كليمان فكان يرى العالم رقعة شطرنج ، ويرى البشر قطعاً يجب تحريكها بحكمة لا بعاطفة.

وفي ذلك اللقاء الأول قالت له: أنتم تخافون من الشعب.

ابتسم قائلاً : بل نخاف على الشعب.

قالت بحدة : الفرق بين الجملتين هو الفرق بين السجن والوطن.

أجاب بهدوء : والفرق بين الثورة والفوضى أقل مما تتصورين.

اشتعل الحوار بينهما. كانت الكلمات تتطاير كالسيوف.

وكان كل واحد منهما يخرج من النقاش أكثر اقتناعاً بأنه يكره الآخر. لكن شيئاً غريباً بدأ يحدث. كان كليمان يجد نفسه يفكر في كلماتها بعد انتهاء كل لقاء. وكان يغضب لأنه يفكر فيها. ويغضب أكثر لأنه ينتظر اللقاء التالي ليرد على حججها.

أما لورا فكانت تعود إلى منزلها وهي تقسم أنها تكره ذلك الأرستقراطي المتغطرس. ثم تكتشف أنها تحفظ تفاصيل وجهه أكثر مما تحفظ ملامح أصدقائها.

وهنا بدأ الخوف الحقيقي. لأن الإنسان يستطيع مقاومة خصمه.

كنه يعجز غالباً عن مقاومة نفسه.

وفي إحدى الليالي جلس كليمان وحده أمام المدفأة.

وسأل نفسه السؤال الذي كان يخشاه :

هل يمكن أن أحب امرأة تهدم كل ما أؤمن به ؟

ظل السؤال معلقاً في الظلام. ثم جاءه السؤال الأكثر قسوة :

أم أنني بدأت أشك في بعض ما أؤمن به بسببها ؟

أغلق عينيه. وللمرة الأولى في حياته شعر أن السياسة أقل تعقيداً من القلب.

أما لورا فكانت تقف أمام مرآتها وتسأل نفسها : كيف استطاع هذا الرجل أن يدخل رأسي رغم أنني أغلقت الأبواب كلها ؟

ثم كانت تضحك من نفسها.

و تقول : إنني أكرهه.

لكن قلبها كان يجيبها في كل مرة :

لو كان الأمر كذلك لما فكرت فيه الآن.

وهكذا بدأت الحكاية.

ليس بين عاشقين تشابها في كل شيء. بل بين روحين كانتا تختلفان في كل شيء تقريباً. وربما لهذا السبب بالتحديد اقتربتا. فالأرواح لا تبحث دائماً عمن يشبهها. بل تبحث أحياناً عمن يكمل نقصها ويوقظ ما نام فيها.

وهكذا، وسط صخب السياسة، وضجيج الثورات، وارتجاف العروش الأوروبية، بدأت زهرة صغيرة تنبت فوق أنقاض العداوة. زهرة لم يكن أحد يتوقع لها الحياة. ولا حتى صاحباها نفسيهما.

كليمان مترنيخ
صار الحب الأول بذرة الحرب الكبرى

لم يكن حديث الكونت كليمان فون مترنيخ عن حبه العاصف المضطرب للجميلة الحمقاء لورا أبرانتس سوى فصل متأخر من فصول قلب عرف الاضطراب مبكراً، وتعلم منذ شبابه أن أكثر المعارك شراسة ليست تلك التي تُخاض على الخرائط والحدود، بل تلك التي تشتعل بصمت داخل صدر رجل واحد.

فالحب الأول الذي أيقظ قلبه من سباته الأرستقراطي لم يكن لورا، ولم يكن امرأة من نساء البلاط اللواتي كانت في عيونهن برودة الرخام، بل كان امرأة أخرى، امرأة حمل اسمها معه طويلاً كأنما هو صلاة سرية لا تُتلى إلا في العتمة.

كانت ماري كونستانس.

وكانت يومها زوجة شابة لمعلم اللغة الفرنسية في كلية ماينتس الإمبراطورية بالنمسا، تلك الكلية التي لم تكن تشبه المدارس بقدر ما كانت تشبه مصانع لإعداد حكام المستقبل وسادة أوروبا القادمين.

لم يكن يلتحق بها إلا أبناء الأسر العريقة ؛ أبناء الأمراء والدوقات والوزراء وكبار النبلاء. أما قبول الطلاب فيها فلم يكن إجراءً إدارياً عادياً، بل كان طقساً سياسياً يليق بالإمبراطورية نفسها.

في مطلع كل عام، كانت قوائم المقبولين تخرج من قصر الإمبراطور مباشرة، تحمل توقيعه وخاتمه الشخصي، كأنها مراسيم تعيين لا كشوف قبول.

وكان كليمان مترنيخ، ابن الأسرة العريقة الممتدة جذورها على ضفاف الراين، واحداً من أولئك الفتيان الذين تربوا منذ طفولتهم على فكرة واحدة :

أنهم لم يولدوا ليعيشوا حياة عادية. بل ليصنعوا التاريخ.

وكان مجتهداً بصورة أثارت دهشة أساتذته. هادئاً. متزناً. بارداً في ظاهره إلى حد الاستفزاز.

لكن خلف تلك العينين الواسعتين ذواتي اللون الجملي، كان يقيم قلب شديد القابلية للاشتعال.

وجاء يوم التخرج. امتلأت القاعة بالشموع والكريستال والحرير والرتب العسكرية اللامعة.

وكان الأساتذة يقفون إلى جوار زوجاتهم في هيئة احتفالية رسمية.

وهناك... رآها. كانت تقف إلى جوار زوجها الفرنسي.

فستانها الأبيض ينساب حولها كضوء قمر هبط إلى الأرض مصادفة، وشعرها البني المتموج يستقر فوق كتفيها في هدوء يكاد يكون موسيقياً.

لم تكن أجمل نساء الحفل. كانت شيئاً أخطر من الجمال. كانت ذلك النوع من النساء الذي يجعل الرجل يشعر فجأة أن حياته السابقة كلها كانت مجرد انتظار لهذه اللحظة.

توقفت عيناه عندها. ولم تتحركا.

وشعر لأول مرة أن قلبه ، ذلك العضو المطيع الهادئ ، قد تمرد عليه فجأة.

قال لنفسه : هذا مستحيل.

ثم عاد يقول : وما علاقة القلب بالمستحيل ؟

حاول أن يصرف نظره. فشل.

حاول أن يقنع نفسه بأنها زوجة أستاذه. فشل.

حاول أن يتذكر اسمها فقط كي يطرد صورتها. فاكتشف أن الاسم نفسه يزيدها حضوراً.

ماري كونستانس.

ردد الاسم داخله مرات عديدة.

حتى بدا له وكأنه يعرفها منذ سنوات طويلة، لا منذ دقائق معدودة.

وبعد انتهاء الحفل ، ارتكب واحدة من الحماقات الشهيرة التي لا يرتكبها إلا الرجال الذين ولدوا نبلاء أو شعراء.

ذهب مباشرة إلى منزل أستاذه الفرنسي. استقبله الرجل بدهشة.

أما مترنيخ فوقف أمامه بكل هدوء و قال :

سيدي... إنك متزوج من أجمل امرأة في العالم كله.بل أجمل من بشاشة وأجمل من ديانا نفسها. وأعترف لك دون مواربة أنني قد جننت بها حباً.

ساد الصمت.

تجمد وجه المعلم الفرنسي.

أما كليمان فأكمل بهدوء غريب :

لذلك أرجو أن تسمح لي بالتردد على منزلكم. وأقسم لك بشرفي، شرف نبيل نمساوي، أن يظل الشرف مصوناً والكرامة محفوظة.

ظل الفرنسي يحدق فيه غير مصدق.

هل يسخر منه ؟ هل فقد الفتى عقله ؟ أم أن أبناء النبلاء يعيشون في عالم لا تنطبق عليه قوانين البشر ؟

انفجر غضباً في البداية. ارتفع صوته. احمر وجهه. وكاد يطرده من المنزل.

لكن العاصفة هدأت سريعاً على نحو لم يكن يتوقعه أحد.

ففي تلك الليلة أخبرته زوجته ، بهدوء يثير الرعب أكثر من الصراخ :

ليس أمامك إلا حلان. إما أن تطلقني. وإما أن تسمح لكليمان مترنيخ بزيارة المنزل.

نظر إليها الرجل مذهولاً.

هل تحبينه إلى هذا الحد ؟

أطرقت برأسها طويلاً قبل أن تقول : لا أعرف متى بدأ الأمر...

لكنني أعرف أنني حين رأيته للمرة الأولى شعرت أنني أعرفه منذ زمن بعيد.

انتشرت القصة في أوساط فيينا وماينتس كما تنتشر النار في حقول الصيف الجافة. وتناقلها الناس همساً وضحكاً ودهشة.

لكن أحداً، حتى أشد أعداء مترنيخ لاحقاً، لم يستطع أن يزعم أنه خان وعده أو خدش شرف معلمه الفرنسي.

لقد كان وفياً لوعده بصورة تكاد تكون أسطورية.

ولعل خير دليل على ذلك ما كتبه بنفسه في يومياته بعد سنوات :

لقد أحببت ماري كونستانس حباً رومانسياً خالصاً ، وأحبتني بكل ما في قلبها البريء من طهارة.

وكانت تقول له وهي تمسك بيده : إنني أعيش من أجلك يا كليمان. وليس لي في الحياة أمنية إلا أن تتدخل يد الله ذات يوم، فتفك قيودي من هذا الزواج الذي لا أشعر نحوه بأي عاطفة.

ثم كانت تبتسم وتضيف : ومع ذلك، فأنا مثلك تماماً... لن أخدش شرفه أبداً.

كان يسمع كلماتها فيشعر بسعادة مؤلمة. سعادة تشبه امتلاك البحر مع العجز عن لمسه.

وكانت تضيف دائماً : اجتهد في دراستك العسكرية يا كليمان.

ستكون رجلاً عظيماً يوماً ما.

وأياً كان ما سيأتي به الزمن، فلن يتوقف قلبي عن الخفقان بحبك.

و كان يسألها أحياناً : وهل تخافين المستقبل ؟ ى

فتجيبه : أخاف الزمن فقط. فالزمن هو العدو الوحيد الذي لا يستطيع الحب هزيمته.

ومرت السنوات. خمس سنوات كاملة. خمس سنوات من السعادة المختلسة. خمس سنوات عاشها مترنيخ بين الكتب العسكرية والخرائط الأوروبية ورسائل الحب الطويلة. خمس سنوات كان يظن خلالها أن العالم، رغم قسوته، قد ترك له زاوية صغيرة من الرحمة.

إلى أن جاءت الكارثة.

رفع الكونت جرونوالد رأسه وسأل : أي كارثة تقصد ؟

أجاب مترنيخ بصوت منخفض : الكارثة البونابرتية.

ثم صمت قليلاً.

كان اسم نابليون بونابرت في ذلك الزمن يشبه صوت المدافع البعيدة. يقترب كل يوم أكثر. ويحمل معه رائحة الخراب.

قال مترنيخ : كان نجمه العسكري يرتفع في سماء أوروبا مثل نذير شؤم.

مدينة بعد أخرى. مملكة بعد أخرى. عرش بعد آخر.

وكان الجميع يراقبون ذلك الضابط الكورسيكي القصير وهو يعيد رسم القارة بالسيف.

في البداية لم أهتم. كنت أظن أن الحروب بعيدة. وأن الحب قادر على بناء أسواره الخاصة. لكن الحرب لا تعترف بأسوار الحب.

فجأة وصلت الجيوش الفرنسية إلى أراضي أجدادي. اجتاحت القرى التي عرفت طفولتي. داست خيولها طرقات كنت أجري فيها صغيراً. واحتلت مزارع أسرتي الممتدة على ضفاف الراين. احترقت الحقول. ونهبت المخازن. وتحولت قرية الذكريات إلى بقعة صامتة من الرماد.

وفي تلك الليلة وقف كليمان مترنيخ على شرفة المنزل القديم.

كانت السماء ملبدة بالغيوم.

وكان يسمع من بعيد أصوات الجنود الفرنسيين. أغمض عينيه. لم تسقط دمعة واحدة. رغم أن العالم كله كان ينهار داخله. كان الحزن قد تجاوز مرحلة الدموع.

قال في نفسه : إذن هكذا يفعل الرجال العظام بأحلام الآخرين.

ثم رفع رأسه نحو الظلام وهمس : أتعرف يا بونابرت ؟ لقد سرقت مني أرضاً. وسرقت ذكريات. وربما ستسرق أكثر من ذلك بكثير. لكنني أقسم لك بشرف أسرتي... أنك ستدفع الثمن.

و تحول الهمس إلى قسم. قسم خرج من أعماق رجل جريح لا من فم سياسي ناشئ.

قال بصوت بدا كالرعد المكتوم : لأرغمن ذلك الطاغية القميء على أن يدفع الثمن غالياً.. بحياته...وبحياة كل من يحب.

وفي تلك اللحظة بالتحديد... ولد السياسي الذي سيعيد تشكيل أوروبا. ومات الشاب الذي كان يصدق أن الحب وحده يكفي لإنقاذ العالم. فبعض الرجال لا تصنعهم الانتصارات. بل تصنعهم الخسارات الكبرى.

وكانت خسارة كليمان مترنيخ الأولى...

هي اللحظة التي بدأ فيها تاريخ أوروبا الجديد.

الطول القصير والظل الطويل
حين جعل مترنيخ من قامة نابليون ساحةً أخرى للحرب

كان المساء يهبط ببطء فوق القاعة العتيقة، كأن الزمن نفسه قد جلس معنا حول المدفأة يصغي إلى الحكايات التي لا تموت. كانت ألسنة النار تتراقص في الموقد الحجري، فتُلقي على الجدران ظلالاً متحركة تشبه أشباح الملوك والقادة الذين عبروا أوروبا وتركوا فوق ترابها آثار أحذيتهم الثقيلة ودماء أحلامهم المكسورة.

رفع أحد الحاضرين رأسه نحو الكونت جرونوالد وسأله في هدوء: ولماذا يا كونت جرونوالد كان مترنيخ يعير بونابرت بقصر قامته؟

ابتسم الكونت ابتسامة صغيرة، تلك الابتسامة التي تظهر على وجه رجل يعرف أن وراء السؤال البسيط أبواباً كثيرة من النفس البشرية.

قال وهو يضم يديه فوق عصاه:

لأن الأمير كليمان مترنيخ لم يكن رجلاً يهاجم خصمه بالسيف قبل أن يعرف أين يختبئ جرحه. كان يدرس النفوس كما يدرس الجنرالات الخرائط العسكرية. وقد أدرك مبكراً أن لا شيء يثير غضب نابليون بونابرت، ولا ينتزع منه رباطة جأشه، أكثر من كلمة واحدة: القمئ.

ساد الصمت لحظة.

ثم أضاف : كان نابليون قادراً على تحمل الهزائم العسكرية أكثر من تحمله للسخرية من قامته. فالرجل الذي صعد من ضابط مدفعية كورسيكي مجهول إلى سيد أوروبا كان يحمل في أعماقه خوفاً قديماً لا يراه أحد. كان يشعر دائماً أن عليه أن يثبت للعالم أنه أكبر من جسده، وأعلى من قامته، وأثقل من صورته التي يراها الناس.

نظر الكونت إلى النار المشتعلة قبل أن يتابع: إن بعض الجراح لا تصنعها السيوف يا سيدي، بل تصنعها المرايا.

⊥

ومن غرائب القدر أن نابليون نفسه استقبل خبر تعيين مترنيخ سفيراً للنمسا في باريس بكثير من المرح والرضا.

كان ذلك في الأيام التي كانت أوروبا كلها ترتجف عند سماع اسمه، حين كانت جيوشه تعبر الحدود كما تعبر الرياح السهول المفتوحة، وحين كانت العروش القديمة تنظر إلى باريس كما ينظر البحارة إلى عاصفة تقترب من سفينتهم.

دخل أحد مساعديه عليه ذات صباح وقال بانحناءة رسمية:

يا صاحب الجلالة، أصدر إمبراطور النمسا قراراً بتعيين الأمير الشاب كليمان مترنيخ سفيراً لجلالته لدى البلاط الإمبراطوري الفرنسي.

رفع نابليون رأسه عن الخرائط الممدودة أمامه.

توقف لحظة. ثم قال ضاحكاً :

كليمان مترنيخ ؟

واتسعت ابتسامته الساخرة.

أليس هذا هو الفتى الوسيم الذي شغلت قصصه الصالونات الأوروبية؟ أليس هو عاشق زوجة معلمه الفرنسي ؟

أجاب المساعد : يقال ذلك يا صاحب الجلالة، ويقال أيضاً إنه شديد الوسامة، محبوب لدى النساء، مولع بالجميلات، لا تكاد تخلو مدينة يقيم فيها من قصة جديدة تروى عنه.

ضحك نابليون بصوت مرتفع.

كان ضحكه يحمل شيئاً من الاستخفاف، وشيئاً من الثقة التي لا تعرف الحدود.

قال : حسناً... باريس مدينة كريمة مع الرجال من هذا النوع. ستجد له ما يكفيه من الحفلات والنساء والرقص والموسيقى حتى ينسى السياسة والدبلوماسية معاً.

ثم مال إلى الخلف في مقعده وسأل :

ما اسم تلك السيدة التي كان يحبها ؟

ماري كونستانس يا صاحب الجلالة.

هز نابليون رأسه ضاحكاً : ليعد المعلم إذن بزوجته إلى باريس. سنجد له وظيفة أكثر أهمية تبعده عن مراقبة زوجته، حتى يتفرغ صاحبنا الشاب لمغامراته العاطفية.

وتابع ساخراً — :وربما تتحول السفارة النمساوية في باريس إلى عش غرام جميل، بدلاً من أن تكون وكراً للتجسس علينا.

ضحك الحاضرون.

أما نابليون فكان مقتنعاً تمام الاقتناع أنه عرف خصمه قبل أن يراه.

وهنا أخطأ.

⊥

كان مترنيخ يعرف جيداً كيف تبدو صورته في أعين الآخرين.

يعرف أن الناس يرونه شاباً وسيماً ، أنيقاً ، بارعاً في الحديث ، مولعاً بالمجالس الراقية والنساء الجميلات.

لكنه كان يدرك أيضاً أن أخطر الأقنعة هي تلك التي يصدقها الجميع. فخلف ذلك الوجه الهادئ كانت تعمل آلة سياسية باردة ودقيقة.

لم يكن يخلط بين الحب والواجب. ولا بين الرغبة والمصلحة. ولا بين القلب والدولة.

وحين أدرك المقصود من سخرية نابليون، قرر أن يرد بطريقته الخاصة.

لم يسافر إلى باريس إلا بعد أن أصبح زوجاً للكونتسة إليانور كونتين، ابنة واحدة من أعظم الأسر النبيلة في الإمبراطورية النمساوية.

كانت أسرتها تمتلك الأرض والنفوذ والاسم القديم.

وكان جدها قد شغل منصب الوزير الأول للإمبراطورة ماري تيريز ذات يوم.

سأله أحد أصدقائه بعد إعلان الزواج : أكان زواج حب ؟

ابتسم مترنيخ ابتسامة صغيرة لا تكاد ترى.

وقال : زواج مصلحة.

بدت الكلمة قاسية. لكنه لم يكن يخشى قسوتها.

فهو من الرجال الذين يرون العالم كما هو، لا كما يتمنى الشعراء أن يكون.

وبعد لحظة من الصمت أضاف ى:الحب جميل، لكنه لا يبني أسراً عظيمة، ولا يحفظ أملاكاً، ولا يضمن استمرارية الأسماء القديمة.

كان يتحدث ببرود محاسب يدقق في أرقام دفتر قديم.

ثم تابع : لقد استعدت ضياع عائلتي وأراضيها، وأضفت إليها أملاك زوجتي وثروتها. واليوم أصبحت أملك من النفوذ ما يجعلني أكثر استقلالاً في خدمة الإمبراطور.

و سكت قليلاً.

ثم قال كمن يحدث نفسه : الرجل الفقير تابع لمن يطعمه، أما الرجل الثري فيستطيع أن يختار سيده.

⊥

كتب مترنيخ إلى أحد أصدقائه رسالة طويلة يبرر فيها زواجه المفاجئ.

وجاء فيها :

إن الإنسان لا يتزوج من أجل الحب وحده، ولا من أجل إرضاء نزوات القلب العابرة. إن الزواج، في الأسر الكبرى، عقد مع الزمن نفسه، لا مع امرأة بعينها. نحن لا نتزوج لأننا نحب، بل لأن علينا أن ننجب أبناء يحملون اسم الأسرة جيلاً بعد جيل، ويحملون رايتها حين نسقط نحن في ظلام القبور.

ثم أضاف : الحب قد يزور الإنسان مرة أو مرتين في حياته، أما الأسرة فتقيم معه حتى موته.

⊥

وحين وصل مترنيخ إلى باريس اكتشف نابليون بسرعة أنه أمام رجل مختلف.

كان السفير النمساوي الجديد يدخل القصور كما يدخل الماء بين الصخور. هادئاً. مبتسماً. مهذباً. لكنه لا ينسى شيئاً. كان يصغي أكثر مما

يتحدث. ويرى أكثر مما يقال أمامه. ويعرف أن الملوك يتعبون من الحذر بعد ساعات طويلة من الحديث، فيتركون كلمات صغيرة تسقط منهم كما تسقط العملات من جيوب المسافرين. وكان هو يجمع تلك العملات بعناية.

أما نابليون فكان مأخوذاً بنفسه إلى حد كبير. كان يشعر أن التاريخ نفسه يجلس إلى مكتبه منتظراً توقيعه. كان يرى أوروبا رقعة شطرنج ضخمة، والملوك مجرد قطع تتحرك حيث يريد. لكنه لم يدرك أن هناك لاعباً آخر يجلس على الطرف المقابل من الطاولة. لا يحمل جيشاً. ولا يقود مدافع. ولا يرتدي زياً عسكرياً. بل يحمل الصبر والذاكرة. والكلمات.

⊥

وفي أحد اللقاءات الرسمية نظر مترنيخ إلى نابليون طويلاً.

كان الإمبراطور الفرنسي يتحرك بعصبية واضحة. خطواته قصيرة وسريعة. يداه لا تهدآن. عيناه تراقبان كل شيء. وكان يبدو كمن يخوض معركة حتى وهو جالس في مقعده.

و فكر مترنيخ يومها : إن هذا الرجل لا يخاف أوروبا.

ثم ابتسم في داخله وأضاف : لكنه يخاف شيئاً آخر. شيئاً يسكن داخله منذ الطفولة. شيئاً لا تستطيع الجيوش هزيمته. شيئاً اسمه الشعور بالنقص. ومنذ ذلك اليوم عرف أين يوجه ضرباته.

⊥

كان نابليون يستطيع أن يسمع أوصافاً كثيرة دون أن يهتز. المغامر. الطاغية. المستبد. فاتح أوروبا. عدو الملوك. كل ذلك لم يكن يزعجه.

أما أن يقال عنه إنه قصير... فهنا فقط كان وجهه يتغير. وكانت عيناه تضيقان. وكان صوته يشتد.

وكان الرجل الذي هزم إمبراطوريات كاملة يتحول فجأة إلى طفل غاضب يدافع عن نفسه أمام سخرية زملائه.

وقد أدرك مترنيخ هذه الحقيقة مبكراً.

وكان يستعملها كما يستعمل المبارز ثغرة صغيرة في درع خصمه. لا ليهزمه... بل ليخرجه من توازنه.

ففي السياسة لا يحتاج المرء دائماً إلى إسقاط عدوه. يكفي أحياناً أن يدفعه خطوة واحدة إلى الخطأ.

⊥

قال الكونت جرونوالد وهو ينهي حديثه :

تلك يا سيدي كانت عبقرية مترنيخ الحقيقية. لم يكن أعظم رجال عصره لأنه أذكى منهم فقط، بل لأنه فهم أن الحروب تبدأ في النفس قبل أن تبدأ على الحدود.

وسكت قليلاً.

ثم أضاف بصوت منخفض : إن الإنسان يستطيع أن يخفي أسراره عن العالم كله، لكنه نادراً ما ينجح في إخفائها عن خصومه الأذكياء.

اقتربت ألسنة النار من نهايتها في الموقد.

وبدا للحاضرين أن الظلال على الجدران صارت أطول. تماماً كما يحدث دائماً مع الرجال العظام. فبعضهم تكون قامته قصيرة... لكن ظله يمتد فوق القارات.

وبعضهم يكون طويلاً... ولا يترك خلفه سوى ظل صغير يختفي مع غروب الشمس.

مترنيخ.
أراد أن يهزم نابليون دون أن يطلق رصاصة واحدة

كان الأمير كليمنس فون مترنيخ واحدًا من أولئك الرجال الذين لا يمرّون في التاريخ مرور العابرين، بل يتركون فوق صفحاته بصماتٍ تشبه الأختام الإمبراطورية التي لا يمحوها الزمن. ستة عقود كاملة ظل فيها الرجل ممسكًا بخيوط السياسة الأوروبية كما يمسك عازف ماهر بخيوط آلة موسيقية معقدة، يرفع صوت أمة ويخفض صوت أخرى، ويشعل حربًا هنا أو يطفئ ثورة هناك.

خدم ثلاثة من أباطرة النمسا، لكن الحقيقة التي كان يدركها خصومه قبل أصدقائه أن الإمبراطورية نفسها كانت في كثير من الأحيان تخدم رؤيته هو، لا العكس. كان وزير الخارجية الأبدي، والحارس الصامت للنظام القديم، والكاهن الأكبر في معبد التوازن الأوروبي.

كان وجهه هادئًا، وصوته منخفضًا، وابتسامته محسوبة بدقة رجل اعتاد أن يخفي المعارك الكبرى خلف كلمات مهذبة ونظرات باردة.

وذات مساء شتوي ثقيل، جلس أمام أحد كبار رجال الاستخبارات النمساوية، الجنرال الذي اشتهر في فيينا بلقب الصقر الأسود، وهو رجل يؤمن بأن الرصاصة أسرع من الدبلوماسية، وأن الخنجر أكثر إقناعًا من المعاهدة.

قال الجنرال بصوت خافت : لقد طال أمر بونابرت أكثر مما ينبغي، وأوروبا لن تنعم بالسلام ما دام يتنفس.

ساد الصمت لحظات.

رفع مترنيخ عينيه ببطء ، ثم قال بنبرة لا تكاد تتجاوز الهمس :

سيدي الجنرال، أوافقك الرأي تمامًا في ضرورة القضاء على بونابرت، لكنني أمقت أساليب التصفية الجسدية.

توقف قليلًا ، ثم أضاف :

انفض يدك من أمره، ودعه لي. أنا كفيل بدفعه إلى الهزيمة عسكريًا وسياسيًا، ليس هو وحده، بل وكل الزمرة البونابرتية التي جعلت أوروبا تعيش على إيقاع المدافع والحرائق.

نظر الجنرال إليه طويلًا.

أما مترنيخ، فكان ينظر عبر النافذة إلى ليل فيينا البارد، ويفكر في نفسه : إن قتل رجل واحد قد يصنع شهيدًا، أما تحطيم أسطورته فهو الذي يقتل الفكرة إلى الأبد.

كان يعرف أن نابليون لم يكن مجرد قائد عسكري، بل كان حلمًا يمشي على قدمين، وأن الأحلام لا تُقتل بالرصاص بل بالخسائر والخذلان وتآكل المجد.

لكن قصتنا اليوم ليست عن تلك المبارزة السياسية الكبرى بين الإمبراطور الفرنسي والدبلوماسي النمساوي، بل عن معركة أخرى أقل صخبًا وأكثر ظلمة، معركة كانت أوروبا كلها تخوضها في الخفاء بينما تتظاهر في العلن بالفضيلة والطهر.

لقد كان القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر عصر التناقضات العجيبة.

كانت الخطب الأخلاقية تتردد في الكنائس والقصور، بينما كانت الصالونات الأرستقراطية تعج بالقصص التي لا تجرؤ الفضيلة على سماعها.

كانت أوروبا ترتدي ثوب الأخلاق في النهار، ثم تخلعه مع حلول المساء.

وفي إحدى الندوات التاريخية التي ضمت نخبة من الباحثين والمؤرخين، رفعت إحدى الزميلات يدها وسألت المؤرخ العجوز الكونت جرونوالد، الذي كرس حياته لدراسة سيرة مترنيخ وعصره :

سيدي الكونت، كيف تفسر لنا هذه الظاهرة الغريبة ؟ لقد شهدت أوروبا آنذاك ظهور أعداد هائلة من الوعاظ ورجال الدين الذين كانوا يتحدثون بإسهاب عن الفضيلة والطهارة ووساوس الشيطان ، ومع ذلك كان كثير منهم أبعد الناس عن تلك القيم التي يدعون إليها.

تنهد الكونت طويلًا.

بدت على وجهه علامات رجل تعب من رؤية التاريخ يكرر أخطاءه.

قال : يا ابنتي ، إن التاريخ يعلمنا أن الإنسان كثيرًا ما يكون أبلغ في الحديث عن الفضيلة عندما يشعر بعجزه عن ممارستها.

ثم أضاف : لم يكن الجميع على هذه الصورة بالطبع، فالعدل يقتضي الإنصاف، لكن الظاهرة كانت واسعة إلى حد أثار قلق حتى بعض بابوات روما أنفسهم.

ساد الصمت في القاعة.

وأردف الكونت : كان كثير من رجال الدين يعيشون صراعًا قاسيًا بين الطبيعة البشرية والقوانين الكنسية الصارمة. ولهذا السبب طالب عدد من كبار المفكرين بإعادة النظر في مسألة تحريم زواج رجال الكنيسة.

رفع أحد الحضور حاجبيه مستغربًا.

ابتسم الكونت و قال :

حتى شاتوبريان، وهو أحد أكثر الكتاب إخلاصًا للكاثوليكية، كتب يومًا متسائلًا: أين النص الصريح الذي يحرم الزواج على رجال الكنيسة؟ ولماذا يُمنع ما أباحه الله، ثم يُترك الناس أسرى للضعف الإنساني في الخفاء؟

هنا تدخل أحد الباحثين قائلاًلا : وهل كان المجتمع الأوروبي ينظر إلى تلك العلاقات بوصفها فضائح ؟

ضحك الكونت ضحكة قصيرة حملت شيئًا من المرارة.

بالعكس يا سيدي، لقد كانت في كثير من الأحيان جزءًا من الحياة اليومية. كان الناس يتحدثون عنها في الصالونات الأرستقراطية، وفي معسكرات الجنود، وفي المقاهي، بل وحتى في الأديرة نفسها.

ثم أردف : كانت أخبار العشاق والخليلات تنتقل بين الناس كما تنتقل في زمنكم أخبار نجوم السينما والرياضة. قصص مألوفة لا تثير غضبًا كبيرًا ولا دهشة حقيقية.

توقف قليلًا ، ثم قال بصوت منخفض : تلك هي مأساة المجتمعات عندما يعتاد الناس رؤية الخطأ حتى يفقدوا القدرة على رؤيته خطأً.

كنت أستمع إليه وأنا أشعر بشيء من الدهشة.

فسألته : ولكن البلاط النمساوي كان مشهورًا بالمحافظة والتشدد والتمسك بالتقاليد الصارمة، أليس كذلك ؟

ابتسم الكونت ابتسامة رجل يعرف أكثر مما يريد أن يقول.

ثم أجاب : شكلاً فقط.

ساد الصمت مرة أخرى.

وأردف : أما ما كان يجري خلف الستائر الثقيلة والشموع المطفأة فكان أكثر تعقيدًا وأكثر قتامة.

ثم مال إلى الأمام وقال : إن البلاطات الملكية كانت تتقن فن التظاهر أكثر مما تتقن فن الفضيلة.

كانت الجملة قاسية.

لكنها كانت تحمل صدق المؤرخ الذي لا يملك ترف المجاملة.

وأضاف : ولهذا لا يمكن فهم مترنيخ بعيدًا عن عصره. لقد كان ابن بيئته، وابن طبقته، وابن أوروبا التي نشأ فيها.

توقف قليلًا، ثم تابع : الناس يحبون أن يصوروا التاريخ على هيئة أبطال وأشرار، لكن الحقيقة أكثر تعقيدًا من ذلك بكثير.

كان مترنيخ رجل دولة عظيمًا، لكنه كان أيضًا إنسانًا يحمل نقاط ضعف البشر جميعًا.

في تلك اللحظة شعرت بأن صورة الرجل بدأت تتغير في ذهني.

لم يعد مجرد وزير بارد الأعصاب يرسم حدود الدول على الخرائط، بل إنسان يعيش صراعاته الخاصة.

ترى ماذا كان يدور في رأسه وهو يشاهد أوروبا تشتعل بالحروب ؟ هل كان يؤمن حقًا بما يدافع عنه ؟ أم أنه كان يخشى فقط سقوط العالم الذي عرفه ؟

ربما كان يحدث نفسه في ليالي فيينا الطويلة قائلاً :

إذا سقط النظام القديم، فمن يضمن ألا تسقط معه الحضارة كلها ؟

كان يخشى الثورات كما يخشى البحارة العواصف.

وكان يرى في الحرية غير المنضبطة طريقًا إلى الفوضى.

أما نابليون، فكان بالنسبة إليه زلزالًا سياسيًا يهدد كل ما آمن به طوال حياته.

ومع ذلك، كان الرجل يحمل في أعماقه شيئًا من الإعجاب الخفي بعدوه الكبير. فالعظماء وحدهم يدركون عظمة خصومهم. وربما لهذا السبب لم يرد له الموت غدرًا. كان يريد أن يهزمه أمام العالم كله. أن ينتصر عليه بالقلم لا بالخنجر. وبالمؤتمر لا بالمسدس. وبالتحالفات لا بالسموم.

وهكذا وقف الرجلان على طرفي التاريخ :

أحدهما يؤمن بالحركة والتغيير والقوة. والآخر يؤمن بالتوازن والاستقرار والصبر.

وكانت أوروبا كلها ساحة لتلك المبارزة الطويلة.

ولعل الحكمة التي يتركها لنا ذلك العصر أن الحضارات لا تسقط فقط بسبب أعدائها، بل أحيانًا بسبب تناقضاتها الداخلية، وأن المجتمعات التي ترفع شعارات الفضيلة دون أن تعيشها تشبه القصور المبنية فوق الرمال؛ تبدو مهيبة من بعيد، لكنها لا تحتاج إلا إلى أول عاصفة كي تتصدع جدرانها.

أما مترنيخ، فقد رحل بعد أن أمضى عمره يحاول إيقاف عجلة التاريخ بيديه.

لكن التاريخ، كما تعلم البشرية منذ فجر الأزمنة، لا يتوقف لأحد.

إنه يمضي دائمًا إلى الأمام ، تاركًا خلفه الرجال العظماء، والانتصارات الكبرى، والأحلام المنكسرة، وكأن الزمن يهمس للجميع بالحقيقة ذاتها :

ليس هناك منتصر أبدي، ولا هزيمة أبدية، بل هناك فقط صفحات جديدة تنتظر أن تُكتب.

السفير الذي أراد الإمبراطور أن ينساه الحب

كان في الثانية والعشرين من عمره فقط، ومع ذلك كان يحمل على كتفيه من النفوذ ما يكفي لأن يثير قلق الملوك، ومن الجاذبية ما يكفي لأن يربك النساء، ومن الذكاء ما يكفي لأن يجعل الساسة يراقبونه كما يراقب البحارة نجمةً مجهولة ظهرت فجأة في السماء.

جاء إلى باريس سفيراً لبلاده، شاباً ثرياً، وسيماً، تنعكس على ملامحه برودة الجبال النمساوية وأناقتها الصامتة. كان اسمه يتردد في الصالونات الأرستقراطية كما تتردد أسماء الأبطال في الأغاني القديمة، وكانت العيون تتبعه حيثما سار، لا لأنه كان جميلاً فحسب، بل لأن فيه شيئاً نادراً يصعب تفسيره؛ ذلك الكبرياء الهادئ الذي لا يتعمد التعالي، لكنه يبدو وكأنه خُلق في طبقة أعلى من ضجيج البشر.

وكان الإمبراطور بونابرت يعرف الرجال كما يعرف القادة خرائط المعارك. وكان يعرف أيضاً أن أخطر الرجال ليسوا أولئك الذين يحملون السيوف، بل أولئك الذين يحملون الأفكار.

ولذلك أراد أن يبعد الشاب النمساوي عن السياسة، لا بالسجون ولا بالمنافي، وإنما بأقدم سلاح عرفته الإمبراطوريات منذ فجر التاريخ: النساء الجميلات.

فكم من قائد هزمته عينان قبل أن تهزمه الجيوش. وكم من عقل لامع أطفأته نار القلب.

ولهذا فُتحت له أبواب القصور، وتسابقت إليه سيدات البلاط الفرنسي كما تتسابق الفراشات إلى الضوء.

لكن الرجل الذي كان يبتسم بأدب للجميع، لم يمنح قلبه لأحد.

وفي إحدى ليالي باريس الممطرة، أقامت الكونتيسة لورا أبرانتيس حفلاً فاخراً على شرف السفير الشاب.

وكانت لورا امرأة اعتادت الانتصار.

جميلة بصورة تكفي لإشعال الغيرة في قلوب النساء وإرباك الرجال، ذكية بما يكفي لتدرك أثر جمالها، وخطرة بما يكفي لتستخدمه كسلاح سياسي واجتماعي في آن واحد.

وكانت قد أعلنت لصديقاتها، في شيء من المزاح وشيء من التحدي:

سأجعله يقع في حبي قبل نهاية الشتاء.

فضحكت إحداهن قائلة :

وهل بقي رجل في باريس لم يقع في حبك ؟

فأجابتها لورا بثقة امرأة لم تعرف الهزيمة :

الرجال نوعان؛ رجال التقيتهم، ورجال لم ألتقهم بعد.

ومع ذلك، فإن المساء لم يجر كما أرادت.

دخل السفير القاعة وسط الموسيقى والشموع والكريستال المتلألئ، وانحنت الرؤوس لتحيته، وتنافست الابتسامات على استقباله.

أما هو فكان يتحرك بهدوء رجل يعرف مكانته ولا يحتاج إلى إثباتها.

اقتربت منه لورا أكثر من مرة. أرسلت إليه النظرات التي كانت كافية عادة لإسقاط أكثر الرجال عناداً.

ابتسمت له. تحدثت معه. أعطته الفرص التي كانت نساء باريس يعتبرنها امتيازاً لا يُمنح إلا للمختارين.

لكنه لم يطلب منها رقصة واحدة. ولا حتى رقصة مجاملة.

بل إنه اختفى من القاعة بعد وقت قصير.

وعندما بحثت عنه بعينيها وجدته في الحديقة المظلمة، يسير ببطء إلى جوار امرأة تخفي وجهها بقناع أسود، وترتدي رداءً فضفاضاً أقرب إلى أثواب الرهبان منه إلى أزياء سيدات البلاط.

كانا يتحدثان بهدوء. وكان هو يصغي إليها كما يصغي التلميذ إلى أستاذه، أو كما يصغي رجل وجد أخيراً شخصاً يفهم لغته السرية.

ولأول مرة منذ سنوات، شعرت لورا بالغيرة. الغيرة الحقيقية.

تلك التي لا تحرق القلب فقط ، بل تحرق الكبرياء أيضاً.

وعادت إلى غرفتها بعد انتهاء الحفل ، وأمسكت يومياتها بعنف ، ثم كتبت :

لم أبغض رجلاً في حياتي كما أبغض هذا المتكبر المغرور، كليمنس مترنيخ، سفير النمسا. سأفعل كل ما أستطيع لإذلاله. وسأهدم مستقبله إن استطعت.

لكن الكلمات التي نكتبها في لحظات الغضب لا تكون دائماً تعبيراً عن الكراهية. فأحياناً تكون الكراهية اسماً آخر للإعجاب الجريح.

وفي الصباح ، لم تستطع أن تمنع نفسها من السؤال.

كان زوجها الجنرال جونو يرتدي بزته العسكرية حين دخلت عليه.

ترددت لحظة، ثم قالت وكأن الأمر لا يعنيها :

ذلك اللعين الذي أقمنا حفلة الأمس على شرفه... لم يطلب مني رقصة واحدة.

رفع الجنرال رأسه عن أوراقه دون اهتمام.

فأكملت : قضى السهرة كلها في الحديقة مع امرأة ترتدي قناعاً أسود. من كانت؟

هز كتفيه قائلاً :

وكيف لي أن أعرف ؟

نظرت إليه بعينين ضيقتين.

لقد ذهبت إليه بنفسك عندما طلبت منك أن تدعوه للعودة إلى الحفل.

صمت لحظة.

نعم، ذهبت.

وماذا قال لك ؟

تنهد الجنرال في ضيق.

لم يقل شيئاً تقريباً.

ماذا تعني ؟

ردني بيده فقط... وكأنه يصرف خادماً مزعجاً.

ارتفع حاجباها دهشة.

أهانك ؟

ليس تماماً... لكنه لم يهتم بوجودي.

ثم أضاف ببرود : وربما هذا أسوأ من الإهانة.

اقتربت منه أكثر.

ألم تر المرأة ؟

كان القناع يغطي وجهها.

وقوامها ؟

أخفته تحت رداء فضفاض.

ثم التفت إليها قائلاً :

لقد قلت لك من قبل، هذا الرجل لا يستحق دقيقة واحدة من تفكيرك.

ابتسمت لورا ابتسامة صغيرة. ابتسامة امرأة اكتشفت شيئاً.

هل تغار منه يا جونو ؟

رفع رأسه فجأة.

أغار منه ؟

ضحك باستهجان.

ولماذا أغار ؟ أنا أيضاً ثري ، ووسيم ، وأحمل رتبة جنرال في الجيش الفرنسي قبل أن أبلغ الثلاثين.

ثم أضاف بفخر :

وإذا طلبت من الإمبراطور أعلى رتبة في البلاد فلن يرفض لي طلباً.

نظرت إليه طويلاً. ثم قالت بسخرية ناعمة:

بالطبع... إذا كنت أنا من سيطلبها منك.

ساد الصمت.

كان الصمت في بعض الأحيان أكثر حدة من الشتائم.

نظر إليها الجنرال بعينين ضيقتين.

ثم قال ببرود متعمد :

الذي أعرفه أن الإمبراطور قد نفض يديه منك منذ زمن.

أصابتها العبارة كما تصيب الطعنة المفاجئة جندياً يظن نفسه آمناً.

لكن النساء اللواتي يعشن في القصور يتعلمن الرد بسرعة، فالحياة هناك لا ترحم المترددين.

ابتسمت ببطء وقالت : حقاً ؟

ثم اقتربت منه حتى أصبحت على مسافة خطوة واحدة فقط.

فلماذا إذن قرر أن يرسلك إلى الحاميات الجديدة في بروسيا ؟

ساد الصمت مرة أخرى. هذه المرة كان الصمت ثقيلاً. ثقيلاً كالهزيمة.

أدار الجنرال وجهه نحو النافذة. أما هي فاتجهت إلى المرآة.

وكان كل منهما يفكر في شيء مختلف. هو يفكر في السلطة التي تمنحها القصور ثم تستردها فجأة دون تفسير. وهي تفكر في الرجل الذي تجاهلها.

فالمرأة قد تنسى رجلاً أحبها. وقد تنسى رجلاً خانها. لكنها نادراً ما تنسى رجلاً لم يحاول حتى أن يحبها.

⊥

وفي تلك اللحظة ، وفي مكان آخر من باريس، كان مترنيخ يقف وحده أمام نافذة مقر السفارة النمساوية.

كان ينظر إلى المدينة التي لا تنام. إلى الأضواء. إلى العربات. إلى الضحكات المتصاعدة من المقاهي.

ثم فكر : ما أغرب البشر... يظنون أن السلطة هي أن تجعل الآخرين يخافون منك. لكن السلطة الحقيقية هي أن تجعلهم يفكرون بك حتى في غيابك.

تذكر عيني الكونتيسة وهي تراقبانه طوال المساء. وتذكر نظرات النساء الأخريات.

ثم ابتسم ابتسامة خفيفة. لم يكن مغروراً كما وصفته. لكنه كان يعرف شيئاً واحداً :

أن السياسي الذي يسمح للعاطفة أن تقود خطواته ، يشبه قائداً يسلم خريطته للعدو. وكان يعرف أيضاً أن نابليون لم يجمعه بنساء البلاط مصادفة.

لقد فهم اللعبة منذ اللحظة الأولى. وكان السؤال الذي يدور في ذهنه :

هل يريد الإمبراطور أن يراقبني ؟ أم يريد أن يلهيني ؟ أم أنه يريد الأمرين معاً ؟

اقترب من النافذة أكثر. وفي أعماقه شعر بشيء لم يعترف به لأحد قط. الوحدة. فالرجال الذين يقفون في القمم يعيشون دائماً وحدهم. كلما ارتفع الإنسان، قلّ عدد الذين يستطيعون الوصول إليه. وكلما زادت السلطة، قلّ عدد الأصدقاء.

وكان يعرف أن الناس يرون ثروته ووسامته ومكانته، لكن أحداً لا يرى ذلك الشاب الذي أُجبر على أن يكبر أسرع من عمره.

ذلك الفتى الذي تعلم منذ الصغر أن الابتسامة قد تكون قناعاً، وأن المصافحة قد تخفي خنجراً، وأن المديح في القصور كثيراً ما يكون مقدمة للخيانة.

تنهد ببطء. ثم همس لنفسه :

السياسة تعلم الإنسان كيف ينتصر على الآخرين. لكنها نادراً ما تعلمه كيف ينتصر على نفسه.

وأطفأ الشمعة.

وبقيت باريس خلف النافذة تتلألأ كأنها بحر من الذهب.

أما في مكان ما من المدينة ، فكانت الكونتيسة لورا أبرانتيس عاجزة عن النوم.

وكان اسم الرجل الذي أقسمت أن تكرهه ، هو الاسم الوحيد الذي يدور في رأسها.

وهكذا تبدأ القصص التي تغير التاريخ أحياناً... لا بالمدافع. ولا بالمعاهدات. بل بنظرة لم تُبادل. ورقصة لم تحدث. وامرأة قررت ألا تغفر لرجل أنه لم يقع في حبها.

حين غارت الإمبراطوريات من امرأة

رفع الكونت جرونوالد بصره إلى الوجوه المتحلقة حوله ، فرأى في عيون أبنائه ذلك اللمعان الذي لا يظهر إلا حين يلتقي التاريخ بالسر الإنساني، وحين تتقاطع خرائط الدول مع خفقات القلوب.

قال وهو يبتسم ابتسامة العارف بأحوال البشر :

المثير يا أبنائي أن الجنرال جونو ، دوق إبرانتيس ، كان يعرف المرأة التي جعلت الأمير مترنيخ ، سيد الدبلوماسية الأوروبية ، يهمل زوجته الجميلة لورا ، ويعيش كأنه رجل عادي هزمته عاطفة عابرة.

ساد الصمت لحظة.

ثم انحنى أحد الجالسين قليلاً وسأل بفضول :

ومن كانت يا كونت جرونوالد ؟

هز الكونت رأسه وقال : لن تصدقوا...

ثم توقف كمن يستمتع بأثر المفاجأة قبل أن يطلقها.

كانت بولين بونابرت... أخت الإمبراطور نابليون نفسه.

ارتفعت الدهشة على الوجوه دفعة واحدة.

قال أحدهم : بولين ؟ ! تلك التي كانت أوروبا كلها تتحدث عن جمالها ؟

ابتسم الكونت وقال : نعم... كانت بالنسبة لنساء أوروبا أسطورة أكثر منها امرأة، وبالنسبة للرجال حلماً أكثر منها حقيقة. قيل يومها إن الرسامين عجزوا عن نقل سحر ملامحها، وإن الشعراء بالغوا في وصفها ثم اكتشفوا أن اللغة أقل سخاءً من وجهها.

ثم أردف :

لكن السياسة يا أبنائي لا تعترف بالجمال إلا حين يخدم مصالحها.

صمت قليلاً قبل أن يتابع :

زوجها الإمبراطور نابليون بالأمير الإيطالي بورغيزي، لا حباً في الأمير ولا في الأميرة، بل ليجعل من الزواج جسراً سياسياً، وليمنح شقيقته القدرة على التأثير في ملكة نابولي وإقناعها بألا تفتح موانئها للأسطول البريطاني.

تنهد الكونت و قال :

كانت أوروبا آنذاك رقعة شطرنج هائلة، والملوك فيها أحجار تتحرك بأصابع نابليون أو أصابع خصومه، أما النساء الجميلات فكن في أحيان كثيرة رسائل دبلوماسية تمشي على قدمين.

غادرت بولين إيطاليا بعد شهرين فقط من زفافها.

شهران لا يكفيان ليكبر الحب، لكنه يكفي أحياناً ليموت الوهم.

عادت إلى باريس التي كانت تعرف كيف تستقبل الجميلات وكيف تلتهمهن في الوقت نفسه.

هناك، وفي إحدى ساحات السباق المزدحمة بالعربات والضباط والسفراء وأصحاب النفوذ، وقع اللقاء الأول.

لم يكن الأمير مترنيخ يومها مجرد رجل. كان يمثل النمسا كلها. وكان يحمل في ملامحه برودة الجبال النمسوية، وفي ابتسامته تلك الدبلوماسية التي تجعل خصمه يبتسم وهو يخسر.

أما بولين فكانت تمثل فرنسا الإمبراطورية بكل غرورها وتألقها وجنونها.

تلاقت العيون. وأحياناً تحتاج الحروب إلى سنوات كي تبدأ، بينما يكفي الحب لحظة واحدة.

قال الكونت بصوت منخفض : منذ تلك اللحظة اشتعل شيء في قلب بولين، واشتعل معه شيء آخر في قلب مترنيخ.

لم يكن حباً هادئاً. بل كان ذلك النوع من العواطف الذي يولد وهو يعرف أنه خطر.

فالسياسي يخشى العاطفة لأنها تكشف ضعفه، والعاشق يخشى السياسة لأنها تسرق قلبه.

سأل أحد الحاضرين :

وهي إذن المرأة التي أثارت غيرة لورا إبرانتيس ؟

أجاب الكونت : نعم.

ثم أضاف : والغيرة يا أبنائي لا تحتاج إلى أدلة كثيرة، إنها ترى ما لا وجود له أحياناً، وتفشل في رؤية الحقيقة أحياناً أخرى.

كانت لورا امرأة ذكية ، لكنها كانت أيضاً امرأة تحب. والحب حين يختلط بالخوف يتحول إلى محقق لا ينام.

بدأت تراقب نظرات مترنيخ. مدة ابتساماته. لحظات شروده. الصمت الذي صار يطول بين جملة وأخرى.

وكانت تسأل نفسها كل ليلة :

من هذه المرأة التي استطاعت أن تحتل مكاناً في ذهن رجل لا يسمح لأحد بالاقتراب من أسواره الداخلية ؟

كانت تعرف أن الرجال يكذبون ، لكنها كانت تعرف أيضاً أن القلوب أكثر صدقاً من الكلمات.

وفي النهاية اتخذت قرارها. قراراً ولدت فيه الغيرة أكثر مما ولد فيه العقل. أسرعت إلى السفارة النمسوية في باريس.

كانت السماء رمادية في ذلك الصباح، وكأن المدينة نفسها تتوقع عاصفة صغيرة ستندلع داخل ذلك المبنى الهادئ.

استقبلها مترنيخ بحفاوة دبلوماسية كاملة. ابتسامة محسوبة. كلمات مهذبة. إيماءة ترحيب مدروسة.

لكنها لم تأت لتشرب الشاي أو لتناقش شؤون أوروبا.

ما إن أغلق الباب حتى اندفعت أسئلتها كطلقات بندقية.

قالت : من كانت المرأة التي كانت معك الليلة الماضية في الحديقة ؟

رفع مترنيخ حاجبيه قليلاً.

ثم أجاب بهدوء : سيدة من معارفي.

قالت بسرعة : أعرفها وتعرفني ؟

أجاب : لا أظن ذلك.

تقدمت خطوة إلى الأمام. كانت عيناها تشتعلان.

وكيف دخلت إلى حديقة قصري إذن ؟ هل أنت من دعاها ؟

توقف لحظة.

فأكملت : لقد كنت مجرد واحد من المدعوين يا سيدي، ولم يكن من حقك أن تدعو أحداً دون إذن مني.

أجاب بهدوء الدبلوماسيين الذي يثير الغضب أكثر مما يهدئه :

جنرالة، أنا لم أدعها، لقد التقينا مصادفة.

ضحكت بسخرية.

كانت تعرف أن كلمة مصادفة من أكثر الكلمات التي يستخدمها العشاق كذباً.

قالت : هل هي شابة ؟

أجاب : نعم.

جميلة ؟

توقف لحظة. وفي تلك اللحظة اتخذ مترنيخ قراره الصغير بالانتقام من غيرتها.

قال متعمداً إثارة غضبها : كلا.

حدقت فيه غير مصدقة.

ليست جميلة ؟

أبداً.

رشيقة ؟

على العكس تماماً.

اقتربت أكثر.

كيف تبدو إذن ؟

قال وهو يخفي ابتسامة صغيرة : في الحقيقة... هي حدباء.

اتسعت عينا لورا.

حدباء ؟

نعم.

وعيناها ؟

أجاب ببرود : ضيقتان ومتباعدتان.

وعنقها ؟

تظاهر بالتفكير.

ثم قال : لا هو جميل ولا قبيح... الحقيقة أنه لا عنق لها تقريباً، مجرد رأس مزروعة بين الكتفين.

أخذت لورا تنظر إليه في ذهول.

أما هو فكان يستمتع بالمشهد كما يستمتع لاعب شطرنج بتحريك قطعة يعرف أن خصمه لن يفهم غايتها إلا بعد فوات الأوان.

قالت : وبشرتها ؟

أجاب فوراً : مروعة... مليئة بحفر الجدري.

ساد الصمت.

ثم انفجرت لورا : من يصدق هذا الهراء ؟

رفع مترنيخ كتفيه.

أما هي فأكملت : لو كانت بهذه الصورة لما بقيت معها في الحديقة طوال السهرة.

لأول مرة منذ بداية الحوار ضحك مترنيخ بصوت مسموع. ضحكة قصيرة لكنها حقيقية.

قال : هذا يعني أنك تعرفين الرجال جيداً يا سيدتي.

أجابته بحدة : بل أعرف النساء جيداً.

ثم أضافت في سرها : وأعرف أن الرجل لا يمنح وقته إلا لما يأسر روحه.

في تلك اللحظة شعرت لورا أن المعركة خاسرة قبل أن تبدأ. لم تكن تحارب امرأة بعينها. كانت تحارب الغموض.

والإنسان يستطيع أن يهزم خصماً يراه، لكنه يعجز أمام خصم لا يعرف اسمه ولا وجهه.

أما مترنيخ، فعندما غادرت، ظل واقفاً قرب النافذة طويلاً.

كان ينظر إلى عربتها وهي تبتعد في شوارع باريس المبتلة بالمطر.

وسأل نفسه : كيف يمكن لرجل يقود مفاوضات القارة كلها أن يعجز عن إدارة قلبه ؟ كيف يستطيع أن يناور روسيا وإنجلترا وبروسيا، ثم يقف مرتبكاً أمام ابتسامة امرأة ؟

ابتسم ابتسامة حزينة.

لقد أدرك الحقيقة القديمة التي يكتشفها الرجال في كل عصر ثم ينسونها في العصر التالي :

إن السياسة تحكم العالم ، لكن القلب لا يخضع للحكومات.

جلس إلى مكتبه. كانت فوقه خرائط أوروبا. خطوط وحدود ومعاهدات وأسماء ممالك.

نظر إليها طويلاً. ثم تمتم :

كم هو غريب أمر البشر...

نرسم الحدود بين الدول بدقة ، لكننا نعجز عن رسم الحدود بين العقل والعاطفة.

⊥

وفي مكان آخر من باريس ، كانت بولين بونابرت تنظر إلى المرآة الطويلة في غرفتها.

كانت تعرف جيداً ما يقال عنها. تعرف أنها جميلة. وتعرف أن جمالها يمنحها سلطة لا تقل عن سلطة الجيوش. لكنها كانت تعرف أيضاً أن الجمال يشبه النار. يمنح الدفء لمن يقترب، ويحرقه إن اقترب كثيراً.

سألت نفسها : هل أحببت مترنيخ حقاً ؟

أم أحببت ذلك الإعجاب الذي رأيته في عينيه ؟

لم تجد جواباً. فأحياناً لا يعرف الإنسان إن كان يحب الشخص أم يحب صورته داخل ذلك الشخص.

أغلقت النافذة.

وكان المساء يهبط ببطء على باريس. مدينة كاملة تستعد للنوم.

لكن ثلاثة أشخاص فقط كانوا عاجزين عن النوم في تلك الليلة :

امرأة تخشى أن تفقد رجلاً.

ورجل يخشى أن يفقد اتزانه. وامرأة جميلة اكتشفت أن القلوب، على عكس الممالك، لا يمكن إخضاعها بالقوة.

ولذلك قال الحكماء قديماً :

إن الحروب تبدأ حين يطمع الملوك في الأرض، وتبدأ المآسي حين يطمع القلب فيما لا يملك.

وقال آخرون :

ليس أخطر على الإنسان من عاطفة تأتي في الزمن الخطأ.

أما التاريخ، ذلك الكاتب العجوز الذي لا ينسى شيئاً، فقد سجل أسماء الملوك والجنرالات والمعارك ، لكنه ترك بين السطور همساً خافتاً يقول :

إن الإمبراطوريات العظمى كثيراً ما تغير مصيرها بسبب أشياء صغيرة... ابتسامة عابرة. كلمة في حديقة. أو امرأة جميلة مرت ذات مساء في طريق دبلوماسي ظن أنه أقوى من الحب.

بين الدبلوماسية والهوى
حين وقفت السياسة على حافة القلب

كان المساء يهبط على المدينة ببطءٍ مهيب، كأن السماء نفسها تتردد قبل أن تطفئ آخر خيوط الضوء فوق الشوارع المرصوفة بالحجر والقصور التي اعتادت أن تخفي خلف نوافذها المضيئة أسرار الدول وأسرار القلوب على السواء. وفي مبنى السفارة النمساوية، حيث كانت الكلمات تُوزَن بميزان الحروب، والابتسامات تُخفي خلفها المعاهدات والمؤامرات، وقف الأمير كليمنس مترنيخ أمام المدفأة الرخامية، يحدق في ألسنة النار الصامتة وكأنه يقرأ فيها خرائط أوروبا القادمة.

كان يعرف أن الحروب لا تُخاض دائماً بالمدافع. بعض الحروب تبدأ بنظرة. وبعض الإمبراطوريات تتصدع بسبب كلمة همس بها قلبٌ غافل.

دخلت لورا أبرانتيس بخطوات حاولت أن تبدو واثقة، لكنها لم تستطع أن تخفي الاضطراب الذي كان يسبقها إلى المكان كعطرٍ لا يُرى ولكنه يُشَمّ. كانت امرأة اعتادت أن تدخل القاعات فتلتفت إليها الرؤوس، لا لجمالها وحده، بل لذلك المزيج الغريب من الكبرياء والذكاء والأنوثة التي تعرف قيمتها جيداً.

أما مترنيخ، فقد كان من أولئك الرجال الذين يصعب إخضاعهم لسلطان المفاجأة.

رفع عينيه إليها، وابتسم ابتسامة خفيفة لا تكاد تُرى.

ثم قال ساخراً:

جنرالة لورا أبرانتيس... أرى أن دور عطيل لا يليق بك.

ارتفعت حاجباها في دهشة امتزجت بالغيظ.

أتظن أنني أغار ؟

ثم أضافت وهي ترفع رأسها في تحدٍّ :

لا تأمل قط أن أقع في حبك. إن زوجي، الجنرال جونو أبرانتيس، يفضلك في كل شيء.

قال مترنيخ ببرود بدا وكأنه صُنع خصيصاً لاستفزاز الآخرين :

أعرف ذلك.

ثم تابع وهو ينظر إلى النافذة :

والأكثر إثارة للدهشة أنه ينتظر الآن خروجك من السفارة، ويعرف تماماً حقيقة ما دار بيننا من حديث.

اتسعت عيناها فجأة.

أي هراء هذا؟ زوجي لا يعرف أصلاً أنني قادمة إلى هنا.

قال بهدوء : بل يعرف.

وسكت لحظة قبل أن يضيف :

ولو نظرتِ من خلف الستار لرأيتِ عربته تقف في الطابور المقابل لباب السفارة.

اشتعل الغضب في عينيها.

أنت تكذب.

أشار بيده نحو النافذة.

انظري بنفسك.

تقدمت بخطوات سريعة ، وأزاحت الستار قليلاً.

في الخارج كانت العربات مصطفة تحت ضوء المصابيح الخافتة، لكن عينيها لم تحتاجا إلى وقت طويل كي تتعرفا إلى الشعار الذهبي المرسوم على باب العربة السوداء.

شهقت. ثم همست : يا للتعاسة...

واستدارت نحوه فجأة : إنها عربته حقاً.

ساد الصمت لحظة.

ذلك النوع من الصمت الذي لا يعني غياب الكلام ، بل حضور الأفكار بصخبٍ يفوق الأصوات.

قالت أخيراً : اسمع يا أمير.

أجابها وهو يعقد يديه خلف ظهره : كلي آذان صاغية.

قالت وهي تحاول أن تستعيد رباطة جأشها :

زوجي يظن أن في استطاعته ، بجماله وشبابه وثروته ، أن يتفوق عليك في ميدانك.

ارتسمت على وجه مترنيخ ابتسامة خفيفة.

في ميداني ؟

ثم تابع :

إذا كنتِ تقصدين السياسة، فأنا أعرف عن الجنرال جونو أنه من كبار ضباط جيش بونابرت، أما السياسة فهي حرب من نوع آخر، لا تُدار بالسيوف ولا بالمدافع.

اشتعل وجهها غضباً.

أنت تعرف جيداً أي ميدان أعني.

ثم اقتربت منه خطوة.

ما رأيك لو مهدتُ لك طريق هزيمته ؟

نظر إليها طويلاً. كان يعرف هذا النوع من اللحظات. لحظات تختلط فيها الرغبة بالكبرياء، والحب بالانتقام، والضعف بالقوة.

قال ببطء : لا أفهم ما تعنين يا سيدتي.

ثم أضاف :

كما أنني لا أرغب أبداً في هزيمة الجنرال زوجك في أي ميدان.

ضحكت ضحكة قصيرة حزينة.

لا تكذب عليّ يا مترنيخ.

ثم قالت بصوت منخفض :الرجال يحبون الانتصار دائماً.

أجابها : والسياسيون يحبون الاستقرار أكثر من الانتصار.

تأملته طويلاً. كم كانت تكره هدوءه. كان الهدوء في حضوره يبدو نوعاً من التفوق.

كانت تشعر أنها تخوض معركة وحدها بينما يقف هو خارج ساحة القتال يراقبها بعين المؤرخ لا بعين المقاتل.

قالت فجأة :

هل تعرف ما أقسى أنواع الهزائم ؟

رفع عينيه إليها.

أن تخسر معركة لم يبدأها خصمك أصلاً.

ارتجف صوتها للمرة الأولى.

هذا ما تفعله بي.

صمت مترنيخ.

أما هي فقد شعرت أن الكلمات التي ظلت تحاصرها أشهراً بدأت تنهار كالسدود القديمة.

جلست على المقعد القريب ، وأسندت رأسها إلى يدها.

كنت أظن أنني أعرف نفسي.

ثم ابتسمت بمرارة.

امرأة تتزوج بطلاً من أبطال فرنسا ، تعيش بين القصور والاحتفالات ، تحسدها النساء ويحترمها الرجال.

رفعت عينيها نحوه.

ثم أكتشف أن القلب لا يفهم شيئاً من المنطق.

ظل صامتاً.

فواصلت : لماذا لا يختار الإنسان من يحب ؟ لو كان الحب قراراً لكانت الحياة أكثر عدلاً. لكن القلب يشبه الممالك القديمة؛ يتمرد على حكامه، ويختار ملوكه بنفسه.

اقترب مترنيخ من النافذة.

في الخارج كانت العربة لا تزال تنتظر.

قال بهدوء : الجنرال يحبك كثيراً.

ابتسمت بحزن.

أعرف.

وهو رجل شجاع.

أعرف.

ويستحق الإخلاص.

أغلقت عينيها.

أعرف ذلك أيضاً.

ثم فتحت عينيها وقالت :

ولكن هل يكفي الاستحقاق لصنع الحب ؟

كم من رجل صالح عاش وحيداً، وكم من امرأة أحبت من لا يستحقها.

إن القلب يا سيدي لا يعرف العدالة. إنه يعرف الرغبة فقط.

كان مترنيخ ينظر إلى ألسنة النار المتراقصة داخل المدفأة.

في حياته الطويلة تعلّم أن الدول تشبه البشر أكثر مما يظن الناس.

فالدول أيضاً تقع في الحب. وتغار. وتخون وعودها. وتخوض الحروب لأسباب تعلنها، وأسباب أخرى تخجل من الاعتراف بها.

قال أخيراً :

المشكلة في الحب أنه لا يكتفي بأن يجعل الإنسان سعيداً أو تعيساً، بل يجعله مستعداً لأن يصبح شخصاً آخر.

رفعت رأسها نحوه.

وهل تغيرت أنت يوماً بسبب امرأة ؟

ابتسم.

كانت تلك من الأسئلة التي لا يجيب عنها السياسيون.

قال :الرجال الذين يعترفون بكل شيء لا يصلحون للدبلوماسية.

ابتسمت لأول مرة منذ دخولها.

إذن هناك أسرار ؟

لدى كل إنسان أسراره.

ثم أضاف : حتى الذين يكتبون التاريخ يخفون نصفه.

قالت: والنصف الآخر ؟

يكتبه المنتصرون.

ساد الصمت من جديد. لكن هذه المرة كان أكثر دفئاً.

قالت فجأة : أحبك.

خرجت الكلمة بسيطة ومباشرة وعارية من كل زينة. كأنها كانت تنتظر سنوات كي تُقال.

أرجوك يا كليمنس... لا تعذبني أكثر من ذلك. أيها الوحش الجميل... أما زلت لا تدرك أنني أحبك ؟

كان يسمع ارتجاف صوتها. ويرى الدموع التي بدأت تتجمع في عينيها.

لكن وجهه ظل هادئاً. هادئاً إلى الحد الذي يشبه القسوة.

قال : سيدتي، نحن الآن في سفارة صاحب الجلالة إمبراطور النمسا.

ضحكت وسط دموعها.

حتى الآن تتحدث كدبلوماسي !

لأنني دبلوماسي.

وأنا أتحدث كامرأة.

أطرق رأسه قليلاً.

كان يعرف أن بين الرجل والمرأة حرباً قديمة لا ينتصر فيها أحد.

قالت : لدي قصر في سان كلو.

ثم أضافت بسرعة كأنها تخشى أن تخونها شجاعتها :

أرجوك أن تأتي اليوم. لنقل الساعة الرابعة.

ظل صامتاً.

كليمنس...

لم يجب.

اقتربت منه خطوة أخرى.

أرجوك.

كان ينظر إليها بعينين يصعب قراءة ما فيهما.

وفي داخله كان صراع آخر يدور.

لم يكن رجلاً من حجر.

لكنه كان يعرف أن بعض الانتصارات تكون في حقيقتها هزائم مؤجلة. وكان يعرف أيضاً أن الذين يقودون مصائر الدول لا يملكون ترف الانقياد الكامل لمصائرهم الشخصية.

قال أخيراً : سيدتي...

لكنها قاطعته : سأقتل نفسي إذا لم تحضر.

ارتجفت الكلمات في الهواء.

لا لأنها كانت تهديداً ، بل لأنها بدت صادقة.

نظر إليها طويلاً.

كم يبدو الإنسان ضعيفاً حين يحب. وكم يبدو عظيماً في ضعفه نفسه. فالقلوب الشجاعة ليست تلك التي لا تخاف، بل تلك التي تخاطر رغم خوفها.

قال بهدوء : لا تقولي ذلك.

إذن تعال.

أنت تطلبين مني المستحيل.

المستحيل كلمة اخترعها العقل ليحمي نفسه من مغامرات القلب.

ابتسم رغم نفسه.

ثم قال : ومن الذي يحمي القلب من نفسه ؟

لم تجد جواباً. لأن بعض الأسئلة لا توجد لها إجابات.

اقتربت من النافذة ونظرت إلى عربة زوجها المنتظرة في الخارج.

همست : إنه رجل طيب.

ثم أضافت : وربما لهذا أشعر بالذنب.

قال مترنيخ :

الذنب هو الثمن الذي تدفعه الأرواح النبيلة حين تخطئ.

التفتت إليه.

وهل أنا مخطئة ؟

أجاب بعد صمت طويل : لا أعرف.

فالتاريخ نفسه لا يملك دائماً القدرة على التمييز بين الخطأ والضرورة. بعض الأحداث تُدان في زمنها ثم تمجدها الأجيال اللاحقة. وبعض الانتصارات تتحول بعد سنوات إلى مصادر للخجل.

خفضت رأسها.

ثم قالت : كم أتمنى لو ولدت امرأة عادية. لا زوجة جنرال. ولا سيدة مجتمع. ولا اسماً تتناقله الصالونات. امرأة تستطيع أن تحب دون أن تهتز حولها العروش.

قال مترنيخ :

حتى النساء العاديات يدفعن ثمن الحب.

الفرق الوحيد أن التاريخ لا يكتب أسماءهن.

رفعت رأسها نحوه.

وفي تلك اللحظة شعرت للمرة الأولى أنها لا تقف أمام رجل ، بل أمام عصرٍ كامل يرتدي هيئة إنسان. رجل يعرف أن المشاعر عابرة بينما الدول باقية. ورجل يعرف أيضاً أن القلوب لا تؤمن بهذه الحقيقة أبداً.

في الخارج تحركت العربة قليلاً. ربما بدأ الجنرال يفقد صبره. وربما بدأ الليل يضيق بما يحمله من أسرار.

تنهدت لورا.

ثم قالت بصوت خافت : هل سنلتقي مرة أخرى؟

أجاب: في أوروبا الصغيرة هذه، يلتقي الناس دائماً.

ابتسمت بحزن.

هذا ليس جواباً.

قال : لأن بعض الأجوبة تصبح أخطر من الأسئلة.

سارت نحو الباب ببطء. وعندما وصلت إليه توقفت. دون أن تلتفت قالت :

هناك معارك يكسبها الرجال، لكنها تترك في أرواحهم جراح الهزيمة.

ثم أضافت : وأظن أنك ستفهم يوماً ما أعنيه.

خرجت.

وأغلق الباب خلفها برفق.

ظل مترنيخ واقفاً وحده. ينظر إلى الباب المغلق. ثم إلى النار المشتعلة. ثم إلى النافذة التي كانت تُرى منها العربة السوداء وهي تبتعد شيئاً فشيئاً في ظلمة الشارع.

ولأول مرة منذ زمن طويل، شعر أن إدارة القارات قد تكون أحياناً أسهل من إدارة القلب. فالحكمة تعلم الإنسان كيف يحكم الآخرين.

أما نفسه... فتلك مملكة لا تُفتح بسهولة. وربما لا تُفتح أبداً.

مترنيخ في مرايا باريس
حين تتصارع القلوب والإمبراطوريات

لم ينسها قط ، رغم ازدحام حياته بالنساء، ورغم أن الطرق التي سار فيها منذ ذلك الحين كانت معبّدة بالوجوه والابتسامات والعهود العابرة.

كانت النساء في حياة الأمير كليمنس فون مترنيخ يشبهن المدن التي يمر بها المسافر في رحلته الطويلة؛ يتأمل شرفاتها ، ويستظل بأشجارها، ثم يواصل السير دون أن يلتفت وراءه كثيراً.

إلا ماري كونستانس. كانت استثناءً صغيراً صنع لنفسه مملكة كاملة في قلبه.

كان اسمها وحده قادراً على أن يوقظ في روحه موسيقى بعيدة تشبه رنين أجراس المساء فوق أسطح فيينا الشتوية. ولم يكن غريباً أن تحتل صورتها مكان الشرف في غرفة نومه، إلى جوار صورة والدته الأميرة، وكأن القلب قد اختار لهما معاً عرشاً لا يزاحمه أحد.

وكان مترنيخ، الذي تعلّم مبكراً أن السياسي الناجح لا يسمح للعاطفة بأن تربك حساباته، يكتشف في كل مرة تقع عيناه على صورتها أن بعض الذكريات أقوى من السياسة، وبعض النساء أقوى من الزمن.

وحين جاءه النبأ، لم يصدق في البداية.

ماتت. كلمة واحدة فقط، لكنها كانت كافية لتُحدث في داخله فراغاً يشبه سقوط قصر كامل في لحظة واحدة.

عادت إلى باريس مع زوجها، ثم أصابتها حمى غامضة لم تمهلها أكثر من أسبوع. سبعة أيام فقط كانت كافية لتختطفها من العالم. سبعة أيام بين الصحة والموت. سبعة أيام تؤكد للإنسان أن القدر لا يعبأ بخطط البشر، وأن الموت لا يطرق الأبواب الكبيرة أو الصغيرة، بل يدخل حين يشاء، ويأخذ من يشاء.

ظل مترنيخ طويلاً ينظر إلى الرسالة المفتوحة بين يديه.

لم يبكِ.

كان الرجال في طبقته الاجتماعية يتعلمون منذ الصغر أن الدموع ترف لا يليق برجال الدولة. لكن الحزن لا يحتاج إلى دموع كي يعلن وجوده.

جلس صامتاً أمام النافذة ، يتأمل ضباب الصباح ، وسأل نفسه للمرة الأولى :

هل كان يحبها حقاً ؟ أم أنه أحب الصورة التي صنعها لها في ذاكرته ؟

ثم ابتسم ابتسامة حزينة.

وما الفرق ؟

فالإنسان لا يحب الناس كما هم ، بل كما يسكنون روحه. وأحياناً تموت المرأة ، لكن النسخة التي صنعها القلب منها تظل حية إلى الأبد.

+

أما في باريس، فقد كانت للإمبراطور نابليون بونابرت حسابات أخرى لا علاقة لها بالحب أو الذكريات. كان يريد شيئاً أكثر نفعاً للدولة. **وأكثر فائدة للإمبراطورية.** وأكثر انسجاماً مع عبقريته السياسية التي لا تعرف الحدود بين الممكن والمستحيل.

كان يأمل أن يغرق السفير النمساوي الشاب في بحار الملذات الباريسية، وأن يتحول من دبلوماسي يراقب أوروبا بعين يقظة إلى عاشق مشغول بفساتين النساء وعطورهن ورسائلهن السرية.

فالرجل المنشغل بقلب امرأة لا يجد وقتاً ليفكر في حدود بلاده.

لكن آمال الإمبراطور خابت في البداية.

ظل مترنيخ يقظاً، متزناً، بارداً كما لو أنه مصنوع من رخام القصور الإمبراطورية.

غير أن باريس مدينة لا تهزم بسهولة. إنها لا تفتح أبوابها دفعة واحدة، بل تتسلل إلى أرواح ضيوفها ببطء، كالعطر الذي لا يشعر المرء بانتشاره إلا بعد أن يمتلئ به المكان كله.

وسرعان ما بدأت حسابات نابليون تستعيد شيئاً من التفاؤل.

فقد أصبح السفير النمساوي الوسيم ضيفاً دائماً في حفلات الأمراء والوزراء والنبلاء.

كانت الإمبراطورية الفرنسية الجديدة تحاول أن تقلد أبهة فيينا القديمة. كانت باريس تتعلم كيف ترتدي ثياب الإمبراطوريات العريقة.

وكان مترنيخ، بشبابه ووسامته وثروته ونسبه الأرستقراطي، يبدو وكأنه خُلق خصيصاً لهذه المسارح المضيئة والثريات الذهبية.

أصبح حديث الصالونات. وصار محبوب سيدات باريس. وكان يعرف جيداً كيف تُكسب القلوب دون أن يقدم لها شيئاً من قلبه. الهدايا الثمينة كانت تصل إلى صاحبة القصر قبل وصوله. الزهور النادرة. العطور الشرقية. التحف الإيطالية.

كان كريماً إلى الحد الذي يجعل الجميع يظنون أن الكرم جزء من طبيعته، بينما كان في الحقيقة جزءاً من دبلوماسيته. فالسياسي الذكي يعرف أن الهدايا أحياناً تفتح أبواباً تعجز المدافع عن فتحها.

+

وفي إحدى الأمسيات، جلس نابليون يفرك يديه في رضا واضح بينما كان تاليران يقف أمامه بابتسامته الغامضة المعهودة.

قال وزير الخارجية :

يا صاحب الجلالة ، لعل فوشيه قد أخبركم أن السفير النمساوي سيكون ضيف الشرف الليلة في قصر الجنرال جونو، دوق أبرانتيس.

رفع نابليون رأسه بسرعة وقال : حقاً ؟

ثم أضاءت عيناه ببريق المرح.

أتقصد أنه تنبه أخيراً إلى سحر لورا ؟

إذا سربلته تلك المرأة بحبها فلن يعود لديه وقت للنمسا كلها.

ابتسم تاليران ابتسامة صغيرة وقال بخبث : مولاي، الكونتيسة لورا لا تحب سوى جلالتكم.

لوّح نابليون بيده بازدراء. هراء.

ثم أضاف ضاحكاً : لورا لا تحب إلا الشباب والثراء، ومترنيخ يملك الاثنين معاً. بل ربما يملك منهما أكثر مما ينبغي.

وسكت لحظة ثم تابع : وأنت تعلم أنني قطعت كل صلة بها بعد تلك العواصف التي أثارتها جوزفين.

ثم ضيق عينيه و سأل : قل لي يا تاليران، من دعاه إلى الحفل ؟ جونو أم لورا نفسها ؟

أجاب الوزير : الجنرال جونو يا صاحب الجلالة.

ضحك نابليون ضحكة قصيرة وقال : ذلك المسكين !ألا يدرك أن زوجته ستلقي شباكها فوراً على السفير الشاب ؟

رفع تاليران حاجبيه وقال : من يدري يا مولاي من سيقع في شباك من ؟

ثم أضاف : ومع ذلك فإن الجنرال جونو واثق بنفسه إلى حد كبير.

لقد قال لها بالأمس :إذا كان مترنيخ أوسم شاب في النمسا ، فأنا أوسم شاب في أوروبا كلها.

قهقه نابليون طويلاً.

مبارزة عاطفية إذن !

ثم التفت إلى تاليران قائلاً : ومن سيفوز برأيك ؟

أجاب الوزير فوراً : السفير مترنيخ يا صاحب الجلالة.

هز نابليون رأسه مبتسماً.

يبدو أن ذكاءك قد خذلك هذه المرة يا تاليران. الفائزة الحقيقية ستكون لورا. إنها لا تخسر أبداً حين تقرر الصيد.

ثم أضاف بنبرة ساخرة : كل ما تفعله تلك المرأة إنما تفعله لتغيظ حماتها وتقتلها كمداً.

+

لكن سعادة نابليون لم تعش طويلاً.

ففي صباح اليوم التالي دخل تاليران يحمل على وجهه ابتسامة المنتصر.

قال : لدي أخبار قد لا تعجب جلالتكم.

رفع الإمبراطور رأسه باهتمام.

ماذا حدث ؟

أجاب تاليران : لم يراقص الكونتيسة لورا مرة واحدة طوال الأمسية. بل إنه كرس كل اهتمامه لابنة السفير البريطاني.

ساد الصمت لثوانٍ.

ثم انفجر نابليون ضاحكاً. ضحكة طويلة صافية نادرة.

يا إلهي !

ثم قال وهو يمسح دموع الضحك :

أعرف لورا جيداً.

إنها لا تحتمل المنافسة. ولا تغفر الهزيمة. أليست هي نفسها سبب نصف مشكلاتي مع جوزفين ؟ لقد كانت تعتبر أي رجل تنظر إليه ملكية خاصة بها.

وتابع ضاحكا : أظن أنها قضت إحدى أسوأ ليالي حياتها.

وكان الإمبراطور على حق تماماً.

ففي تلك الليلة الباردة من السادس من ديسمبر عام 1807، جلست لورا أبرانتيس أمام مكتبها ، والشموع ترتجف ألسنتها الصغيرة مع رياح الشتاء.

كانت باريس نائمة. لكن الغضب لا ينام.

فتحت يومياتها بعنف ، وغرست الريشة في الحبر كما لو أنها تغرس خنجراً في صدر عدو.

ثم كتبت : لم أبغض رجلاً في حياتي كما أبغضت ذلك المتكبر المغرور، كليمنس مترنيخ.

توقفت لحظة.

وعادت تكتب : لقد عاملني وكأنني غير موجودة.

وكان هذا هو الجرح الحقيقي.

فالمرأة قد تغفر الإهانة. وقد تغفر الخيانة. لكنها نادراً ما تغفر التجاهل.

كتبت مرة أخرى : سأفعل كل ما في وسعي لإذلاله وتحطيم مستقبله.

ثم توقفت عن الكتابة. ونظرت إلى انعكاس وجهها في المرآة. كانت لا تزال جميلة. بل كانت تعلم جيداً أنها جميلة.

لكنها اكتشفت في تلك الليلة حقيقة مريرة :

أن الجمال قوة عظيمة ، لكنه ليس قوة مطلقة. وأن المرأة التي تعتاد الانتصار تخاف الهزيمة أكثر من غيرها.

+

وفي مكان آخر من باريس ، كان مترنيخ يستعد للنوم بهدوء كامل. لم يكن يعلم أن تجاهله لرقصة واحدة قد صنع له عدواً جديداً. وهكذا هي الحياة في قصور السياسة. الحروب الكبرى تبدأ أحياناً بسبب حدود. وأحياناً بسبب عروش. وأحياناً بسبب امرأة لم تحصل على الرقصة التي أرادتها.

ابتسم السفير الشاب وهو يطفئ الشموع.

وكان يظن أن معارك أوروبا القادمة ستُحسم في المؤتمرات والاتفاقيات. لكنه لم يكن يعرف بعد أن القلوب المجروحة قادرة أحياناً على تغيير مجرى التاريخ بقدر ما تفعله الجيوش. فالتاريخ لا يصنعه العظماء وحدهم. بل تصنعه أيضاً الغيرة، والكبرياء، والرغبات الصغيرة التي يستهين بها الجميع حتى تتحول إلى عواصف.

وما أكثر العواصف التي بدأت من همسة في قاعة رقص، ثم انتهت بتغيير وجه القارة كلها.

لورا ومترنيخ
حين هُزمت الإمبراطوريات في صمت القلوب

توقفنا عند تلك الرسائل الغرامية المجنونة التي كانت تصل تباعًا ، تحمل في سطورها المرتجفة رائحة العطر الباريسي، وحرارة الاعترافات التي تكتبها امرأة لم تعد تفرق بين الحب والهزيمة، بين الشغف والخيانة، بين الوطن والرجل.

كانت بعض الرسائل تروي ، بجرأة تكاد تكون مخجلة، تفاصيل ليلة حب وحيدة جمعتها بالأمير مترنيخ، ليلة ظلت تطاردها كما تطارد النجوم سفينة تائهة في بحر مظلم، وكأنها لم تكن ذكرى عابرة، بل قدرًا أُودع في قلبها إلى الأبد.

ولهذا واصلت حديثي مع المؤرخ الكونت كونستانتين دي جرونوالد ، وكان الرجل جالسًا في مقعده الوثير قرب النافذة، بينما تتراقص على وجهه أضواء الغروب الشاحبة، فيبدو كواحد من أولئك الرجال الذين عاشوا زمنًا أطول من أعمارهم، وحملوا في ذاكرتهم من الأسرار ما يكفي لإسقاط عروش كاملة.

سألته : وهل وفى مترنيخ بوعده لنفسه وكرامته ؟ هل استطاع أن يقاوم هذه المرأة، فلم يقابلها طوال إقامته في باريس سفيرًا لبلاده ؟

ابتسم الكونت ابتسامة صغيرة ، تلك الابتسامة التي يبتسمها المؤرخون عندما يعرفون أن الحقيقة أكثر تعقيدًا من الأسئلة.

ثم قال ببطء : قابلها مرتين فقط.

وصمت لحظة ، كأنه يزن الكلمات قبل أن يطلقها في الهواء.

مرة في باريس ، ومرة أخيرة في فيينا ، بعد أن أصبح وزير خارجية النمسا ، والرجل الأول في هندسة السياسة الأوروبية ، والعقل الذي أعاد رسم حدود القارة بعد انهيار الإمبراطورية الفرنسية.

ثم تنهد وأضاف :

لكن يا أبنائي ، ليست العبرة بعدد اللقاءات ، بل بما تتركه بعض اللقاءات في أرواحنا من خراب لا تصلحه السنوات.

أسند الكونت ظهره إلى المقعد، وحدق بعيدًا كأنه يرى أشباح القرن التاسع عشر تتحرك أمامه.

كانت لورا أبرانتيس من أكثر إفرازات العصر النابليوني مأساوية. امرأة ولدت لتعيش في زمن أكبر من قلبها ، وأقسى من أحلامها. امرأة جميلة إلى الحد الذي يجعل الرجال يخطئون في تقديرها ، وذكية إلى الحد الذي يجعلهم يخافون منها ، وعاطفية إلى الدرجة التي تدفعها إلى تدمير نفسها بيديها.

صمت قليلًا ، ثم تابع : لقد ألقى نابليون على كتفيها الرقيقتين مسؤولية لم تكن تستطيعها جيوش بأكملها. حملها مسؤولية الهزيمة في واترلو ، واتهمها حتى آخر يوم في حياته بأنها كانت السبب الحقيقي وراء قرار مترنيخ بالموافقة على نفيه إلى سانت هيلانة.

رفعت رأسي في دهشة.

إلى هذه الدرجة ؟

قال الكونت :

إن الرجال العظماء ، حين يسقطون ، يبحثون دائمًا عن وجه بشري يعلقون عليه هزائمهم. ونابليون لم يكن استثناءً.

ثم استأنف حديثه بصوت أقرب إلى الهمس :

في أيامه الأخيرة بالمنفى ، كان الإمبراطور يجلس طويلًا أمام المحيط، يراقب الأمواج وهي تتحطم على صخور الجزيرة القاسية. كان يشعر أن العالم كله قد انكمش حتى صار لا يتجاوز حدود تلك الصخور السوداء.

هناك قال لسكرتيره الجنرال برتران :

إنني لم أُهزم عسكريًا يا برتران ، بل هُزمت يوم هزمتني لورا أبرانتيس في مخدع عدوي اللدود مترنيخ.

ساد الصمت في الغرفة.

كان نابليون يومها شيخًا متعبًا ، يأكل المرض من جسده كما تأكل الرطوبة جدران القلاع القديمة.

لكن عينيه ، رغم الوهن ، ظلتا تحتفظان بذلك البريق الذي أخاف أوروبا عشرين عامًا.

أما برتران ، فقد كان من أكثر رجال البلاط إخلاصًا للإمبراطور ، أو لعل الأدق أن نقول : من أكثرهم قدرة على إخفاء آرائهم الحقيقية.

ومع ذلك، قال هذه المرة بشجاعة نادرة :

يا صاحب الجلالة ، لقد دخلت الدوقة لورا إلى مخدع جلالتكم مرات أكثر بكثير مما استضافها الأمير مترنيخ في داره.

ارتفع رأس نابليون فجأة. تصلبت ملامحه. واشتعل في عينيه ذلك البريق القديم ، بريق الجنرال الذي اعتاد إصدار الأوامر لا سماع الاعتراضات.

قال بحدة : أي قول هذا يا برتران ؟

ثم ضيق عينيه وأضاف : أراك تلتمس الأعذار لهذه المجنونة !

توقف قليلًا.

ثم أردف بصوت منخفض : أم أنك تحبها أنت أيضًا ؟

لم يجب برتران.

ابتسم نابليون ابتسامة مريرة.

لا تكذب يا برتران... أنا أعرف كل شيء.

ظل برتران صامتًا لحظة، ثم قال :

مولاي ، لم يكن في أوروبا كلها من يستطيع مقاومة سحر الدوقة لورا أبرانتيس.

ساد الصمت ثانية. كان الصمت أحيانًا أبلغ من الخطب.

نظر نابليون إلى النافذة ، إلى البحر الممتد حتى الأفق.

كم يشبه البحر السلطة ! واسعًا حين نملكه ، مخيفًا حين نفقده.

قال الإمبراطور بصوت شارد : كلهم أحبّوها إذن... كلهم إلا مترنيخ.

ثم استدار فجأة نحو برتران.

أحبته بجنون ، لكنه أعرض عنها.

توقف قليلًا.

وما تزال تحبه حتى الآن.

كان صوته يحمل مرارة رجل أدرك متأخرًا أن السلطة تستطيع شراء الجيوش، لكنها لا تستطيع شراء قلب امرأة.

سأل برتران : هل لديكم أخبار عن تطور علاقتها به ؟

قال برتران :

كل ما أعرفه من رسائل زوجتي من باريس أن لورا تعيش الآن في فيينا.

ابتسم نابليون ابتسامة حزينة.

أرأيت ؟

ثم ضرب بيده على ذراع المقعد.

إنها لا تزال تحبه إذن.

ساد الصمت من جديد.

لكن داخل رأس نابليون كانت تدور حرب كاملة.

هل كان يغار من مترنيخ ؟ هو، نابليون بونابرت، الذي انحنت أمامه العواصم الأوروبية ؟ هل يمكن لإمبراطور هزم الممالك أن يشعر بالغيرة من رجل كسب قلب امرأة ؟

كانت الفكرة تثير غضبه.

لكنه كان يعرف في أعماقه أنها الحقيقة.

قال فجأة : لقد أحسن اللعين الإفادة من هذا الحب.

ثم أضاف ببطء : كانت تنقل إليه كل أخبار تحركاتي السياسية والعسكرية.

كان يتكلم كما لو أنه ما يزال في مجلس الحرب. كما لو أن الخرائط ما تزال مفروشة أمامه. كما لو أن المدافع لم تصمت بعد.

بل إني أظن أنها الآن في فيينا تحرضه على اغتيال ابني... ملك روما.

ارتجف صوته عند ذكر ابنه.

كان الأب في داخله أقوى من الإمبراطور في تلك اللحظة.

لقد خانتني من وراء معطف جونو أبرانتيس يا برتران.

قال برتران بهدوء : لم يكن الدوق جونو ليخون جلالتكم أبدًا ، ولم يكن ليفضي إليها بأسرار الدولة لتنقلها إلى مترنيخ.

نظر نابليون إليه طويلًا.

ثم قال في مرارة عميقة : هل أنت ساذج يا برتران ؟

وقف قليلًا.

ثم تابع : كان يكفي أن تهمس في أذن زوجها الأبله بكلمة حب واحدة ، ليبوح لها بكل شيء.

ابتسم ابتسامة ساخرة.

الرجال يا برتران لا يخسرون أسرارهم في ساحات القتال ، بل يخسرونها في لحظات الضعف.

صمت قليلًا.

ثم قال : ألم تنقل إلى مترنيخ أسرار مجلس الحرب قبل واترلو ؟

لم يجب برتران.

أما نابليون فتابع حديثه ، كأنه يحاكم شبحًا لا امرأة :

لسوء الحظ، لم تحب لورا أحدًا كما أحبت عدوي مترنيخ.

ساد الصمت طويلًا.

+

وفي مكان بعيد من فيينا ، كانت لورا نفسها تجلس قرب المدفأة، تحمل رسالة قديمة بيد مرتجفة. كانت تعرف أن العالم كله يتهمها. الفرنسيون يرونها خائنة. والنمساويون يرونها جاسوسة فرنسية. والسياسيون يرونها امرأة خطيرة.

أما هي ، فلم تكن ترى نفسها إلا امرأة أحبت أكثر مما ينبغي.

رفعت الرسالة إلى عينيها. كانت الرسالة قصيرة. باردة. مقتضبة. كما لو أن كاتبها كان يخشى الكلمات نفسها.

كانت من مترنيخ.

قرأتها للمرة الألف :

بعض المشاعر يا سيدتي لا يجوز لها أن تنتصر، لأنها إن انتصرت هزمت أصحابها.

أغمضت عينيها.

كم كانت تكره حكمته ! وكم كانت تحبه بسببها.

همست لنفسها : لماذا لم تحبني كما أحببتك ؟

لكنها كانت تعرف الجواب.

مترنيخ لم يكن رجلًا يعيش بقلبه. كان يعيش بعقله. السياسي العظيم لا يسمح لعاطفته أن تقوده.

وكان يدرك أن المرأة التي تحمل إليها أسرار الأعداء قد تحمل أسراره يومًا إلى غيره.

ومع ذلك...

هل أحبها ؟

ذلك السؤال ظل يطارده حتى نهاية حياته.

+

في إحدى الليالي ، سأل مترنيخ نفسه السؤال ذاته وهو ينظر إلى أضواء فيينا :

هل أخطأت حين ابتعدت عنها ؟

لم يجبه أحد.

لكن المدينة كلها بدت وكأنها تهمس له :

ربما.

أحيانًا يخسر الإنسان حياته حين يحب. وأحيانًا يخسرها حين يخاف من الحب.

أما لورا، فقد دفعت ثمن الاثنين معًا. خسرت الإمبراطور الذي وثق بها. وخسرت الرجل الذي أحبته. وخسرت سمعتها بين الناس. ولم يبق لها في النهاية سوى الذكريات. والذكريات يا سادة ، هي أكثر أنواع المنافي قسوة.

فالسجين يعرف متى تنتهي عقوبته. أما سجين الذكريات، فلا يملك تاريخًا للإفراج.

وهكذا بقيت لورا أبرانتيس تمشي في شوارع فيينا كأنها تحمل فوق كتفيها أنقاض إمبراطورية كاملة. كانت تسمع وقع خطواتها على الحجارة القديمة، فتشعر أنها تسمع أصداء المدافع في واترلو.

وترى العربات تمر أمامها، فتظن أنها مواكب الجنود العائدين من الهزيمة.

وتسمع اسم مترنيخ في المجالس، فيرتجف قلبها كما يرتجف جندي يسمع اسم المعركة التي نجا منها جسده ولم تنج منها روحه.

ذلك هو قدر بعض النساء. أن يحملن في قلوبهن حروبًا لا يراها أحد. وقدر بعض الرجال أن ينتصروا في السياسة ويهزموا في الحب.

أما التاريخ، ذلك القاضي العجوز الذي لا ينام ، فقد سجل القصة بطريقته الخاصة :

نابليون خسر إمبراطوريته. ولورا خسرت قلبها. أما مترنيخ، فقد ربح أوروبا كلها... وربما خسر المرأة الوحيدة التي أحبته حقًا.

ظلال باريس الأخيرة
حين تتكلم الهزائم بما عجزت عنه الانتصارات

كان المساء يهبط على الصالون العتيق هبوط طائر متعب يعود إلى عشه الأخير. خلف النوافذ العالية كانت المدينة تغرق شيئًا فشيئًا في ضباب خفيف، حتى بدت المصابيح المبعثرة في الطرقات كنجوم صغيرة سقطت من سماء بعيدة واستقرت على الأرض في حزن صامت.

جلس الكونت جرونوالد في مقعده الوثير، تتراقص ألسنة النار في المدفأة على ملامحه الحادة، فتزيد تجاعيد الزمن عمقًا وهيبة. كان وجهه يشبه خرائط أوروبا بعد الحروب النابليونية؛ خطوط كثيرة، وحدود كثيرة، وخسائر أكثر.

سألته : ما قولك يا كونت جرونوالد في أفكار بونابرت في منفاه عن الدوقة لورا برانتيس ؟

ابتسم ابتسامة طويلة، ثم أطلق ضحكة قصيرة تشبه تنهد رجل رأى من الدنيا أكثر مما ينبغي أن يراه بشر.

قال : الغريب في نابليون أنه لم يبدأ يرى الأشياء كما هي إلا بعدما أغلقت عليه البحار أبوابها في جزيرة سانت هيلانة. الهزيمة يا سيدي معلم قاسٍ، لكنها المعلم الوحيد الذي لا يكذب.

صمت قليلًا، ثم أضاف : لقد أدرك هناك أن المجد ليس حصنًا يحمي القلب من أوهامه ، وأن القادة الذين يقودون الجيوش قد يعجزون عن قيادة رغباتهم الصغيرة.

كنت أراقب عينيه وهما تحدقان في النار، كأن اللهب يعيد إليه وجوهًا وأسماءً دفنها الزمن.

قال بصوت منخفض : لم يكن يعيب حديثه عن لورا إلا أنه تجاهل حقيقة يعرفها كثيرون ؛ وهي أن إعجابه بها كان من الأسباب التي دفعت نجمة زوجها الجنرال جونو إلى الصعود سريعًا في سماء الجيش الفرنسي.

رفع كأسه قليلًا وتأمله قبل أن يكمل :

كان جونو ضابطًا شابًا لا يختلف كثيرًا عن عشرات الضباط الذين حملتهم الحملة الفرنسية إلى مصر، ثم فجأة أصبح جنرالًا يقف في الصفوف الأولى بين رجال الجمهورية.

قلت : لكن التاريخ الرسمي يذكر بطولاته العسكرية.

ابتسم الكونت ابتسامة ساخرة.

التاريخ الرسمي يا صديقي يشبه المرايا الموضوعة في قصور الملوك ؛ لا تعكس إلا الزاوية التي يريدها أصحاب القصور.

ثم استند إلى ظهر مقعده وقال :

أتذكر يوم غضب كليبر من ترقيته ؟ لقد رأى في الأمر ظلمًا واضحًا ، واعتزل الناس في داره بالأزبكية محتجًا على مساواته بضابط لم يكن قد أثبت بعد ما يبرر تلك القفزة الهائلة.

وبدا الكونت كأنه يستعيد المشهد أمامه.

ذهب نابليون إليه بنفسه، وحاول تهدئته قائلًا :

يا عزيزي كليبر ، إن جونو من أشجع رجال الجيش ، ولا يقل بأسًا عنك أو عن ناي أو برتران.

تنهد الكونت.

كانت الحروب آنذاك تصنع الأساطير أسرع مما تصنع الحقائق.

قلت : أكان جونو إذن رجلًا دمويًا كما صوره خصومه ؟

هز الكونت رأسه ببطء.

الحروب لا تحتاج إلى رجال دمويين بقدر حاجتها إلى رجال يؤمن الناس بأنهم دمويون. السمعة العسكرية كانت سلاحًا يسبق المدافع أحيانًا.

ثم مال نحوي قليلًا وقال :

أما الحقيقة فكانت أكثر تعقيدًا من كل الروايات التي تناقلتها الصالونات الأوروبية.

ساد الصمت لحظات.

في الخارج كانت الريح تضرب زجاج النوافذ كما تضرب الذكريات أبواب القلب حين نشيخ.

قال الكونت :

كان جونو رجلًا يحمل شجاعة متقطعة، تظهر أحيانًا وتختفي أحيانًا أخرى. لكنه امتلك ميزة لا تقل أهمية في بلاط السياسة عن البطولة في ميدان الحرب؛ فقد عرف كيف يبقى قريبًا من مراكز النفوذ.

ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة غامضة.

وهنا تبدأ قصة لورا.

كان الاسم وحده كافيًا ليغير نبرة صوته.

كانت امرأة تمتلك ذلك النوع من الحضور الذي يجعل الغرفة تصمت حين تدخلها ، ثم تبدأ الهمسات بعد خروجها. بعض الناس يملكون الجمال، وبعضهم يملكون الذكاء ، أما هي فقد امتلكت القدرة الأخطر: القدرة على التأثير.

قالت صديقتنا التي كانت تتابع الحديث باهتمام :

ويقال إن المرأة التي قامت على تربيتها كانت شخصية نافذة في المجتمع الباريسي.

ضحك الكونت وقال : باريس يا سيدتي مدينة لا يحكمها الملوك وحدهم، بل تحكمها أيضًا الصالونات والولائم والابتسامات التي تبدو بريئة وهي تغيّر مصير الإمبراطوريات.

ثم تابع : كانت لورا ابنة لذلك العالم؛ عالم المجاملات التي تخفي الصفقات، والكلمات الرقيقة التي تخفي الطموحات، والنظرات العابرة التي قد تغير مصير دول كاملة.

أخذ رشفة صغيرة من شرابه وأردف : لكن القدر أرسل إلى حياتها رجلًا آخر.

سألته : مترنيخ ؟

أومأ برأسه.

نعم، الأمير مترنيخ.

وتبدلت ملامحه فجأة.

كان من أولئك الرجال الذين يولدون وكأن أوروبا كلها اتفقت على منحهم نصيبًا زائدًا من الذكاء والوسامة والحضور والدهاء السياسي.

ثم ابتسم.

كان يعرف كيف يتحدث بحيث يظن كل من أمامه أنه الشخص الوحيد المهم في العالم.

قلت : وهل أحبته حقًا ؟

تأمل السؤال طويلًا قبل أن يجيب :

الحب كلمة واسعة جدًا يا صديقي. أحيانًا يكون الحب إعجابًا متضخمًا، وأحيانًا يكون رغبة في امتلاك ما لا يمكن امتلاكه، وأحيانًا يكون محاولة للهروب من الفراغ الداخلي.

ثم أضاف : ربما أحبته، وربما أحبت الصورة التي رأت نفسها فيها حين كانت بقربه.

ساد الصمت مجددًا.

كان صوت احتراق الحطب في المدفأة يشبه صوت السنين وهي تتحطم واحدة بعد أخرى.

قال الكونت : في تلك الأيام كان مترنيخ سفيرًا للنمسا في باريس، وكانت أوروبا كلها تقف فوق برميل بارود ينتظر شرارة واحدة.

خفض صوته أكثر.

والانشغال في زمن الحروب ليس خطأً شخصيًا فقط، بل قد يصبح خطأً تاريخيًا.

ثم تابع: انشغل الرجل عن بعض واجباته الدبلوماسية، واستفاد نابليون من كل لحظة تردد أو غفلة، كما كان يفعل دائمًا.

رفع إصبعه وقال : كان نابليون يؤمن بأن الزمن أهم من الجنود، وأن دقيقة واحدة في الحرب قد تساوي ألف قتيل.

ثم تنهد.

وحين أدرك مترنيخ حجم الأخطاء التي تراكمت، عاد إلى صرامته المعهودة، وأعاد ترتيب المسافات بينه وبين كل ما يمكن أن يربك حكمه السياسي.

قلت : وكيف استقبلت لورا ذلك ؟

ابتسم الكونت بحزن هذه المرة.

الإنسان لا يغضب حين يخسر ما يملك، بل حين يخسر ما كان يظن أنه يملكه.

ثم أضاف : بعض القلوب لا تعرف الفرق بين الحب والتعلق، وبين الوفاء والاعتياد، وبين الشغف والرغبة في الانتصار.

بدت النار في المدفأة وكأنها تخفت قليلًا.

قال : حاولت استعادة قربه برسائل كثيرة، ووساطات أكثر، لكن السياسة كانت قد استعادت الرجل الذي كاد الحب يسرقه منها.

ثم سكت. كان الصمت هذه المرة أثقل من الكلمات.

سألته : وهل انتهت القصة عند هذا الحد ؟

ابتسم ابتسامة باهتة.

القصص الإنسانية لا تنتهي يا صديقي، بل تتوقف فقط حين يتعب الرواة.

ثم تابع : ذات مساء أقيم حفل تنكري في منزل أحد السفراء الشباب في باريس. كانت الموسيقى تملأ القاعات، والشموع تتراقص فوق الثريات البلورية، والوجوه تختبئ خلف الأقنعة أكثر مما تختبئ خلف الأقمشة.

وأغمض عينيه كأنه يرى المشهد من جديد.

كانت باريس آنذاك تتقن الرقص فوق حافة الهاوية.

قلت : وماذا حدث ؟

قال : اقتربت امرأة مقنعة من زوجة مترنيخ الشابة، وهمست لها بصوت خافت :

هل تسمحين لي بقراءة الطالع في كفك يا سيدتي ؟

مدت الأميرة يدها مبتسمة. فقالت المرأة المقنعة : أرى أمامك طريقًا طويلًا، مليئًا بالمجد والقلق معًا. وأرى أن القلوب العظيمة لا تهزمها الحروب بقدر ما تهزمها الظنون.

توقفت لحظة.

ثم أضافت : احذري من أن تصدقي كل ما يقال لك ، فالكلمات في العواصم الكبرى لا تسافر وحدها، بل تحمل معها دائمًا مصالح أصحابها.

فتح الكونت عينيه وقال :

لم تعرف الأميرة هوية المرأة، لكنني كنت أعرفها.

سألته : كانت لورا ؟

أومأ ببطء.

نعم.

ثم ابتسم بحزن عميق.

أحيانًا يكون الإنسان أكثر رحمة بأعدائه منه بنفسه.

وساد الصمت.

كانت الساعة العتيقة على الجدار تعلن مرور الزمن بضرباتها الثقيلة.

قال الكونت أخيرًا : تعلمت من الحروب شيئًا واحدًا يا صديقي.

قلت : وما هو ؟

قال : إن الإمبراطوريات تسقط بالمدافع، أما البشر فيسقطون بالأوهام.

ثم أضاف وهو ينظر إلى النار التي أوشكت على الانطفاء :

ومن حسن حظ التاريخ أن الأوهام تموت مع أصحابها، أما الحكمة فتبقى تنتظر من يصغي إليها.

نهض ببطء واتجه نحو النافذة.

في الخارج كانت باريس تواصل حياتها كأن شيئًا لم يحدث يومًا.

أما في الداخل، فقد بقيت كلمات الكونت معلقة في الهواء :

كل انتصار يحمل بذرة هزيمته، وكل هزيمة تحمل بذرة حكمة متأخرة.

وربما لهذا السبب تحديدًا ، لم يفهم نابليون نفسه إلا بعدما صار البحر سجنه، وصارت الذكريات جيشه الأخير، وصار الماضي الإمبراطورية الوحيدة التي لا يستطيع أحد أن ينتزعها منه.

مفاتيح النار
ليلة سقط فيها الوهم في قصر مترنيخ

كانت فيينا تلك الليلة تبدو كأنها خرجت من صفحات أسطورة قديمة. الثلج يتساقط في الخارج في صمت الملوك ، والعربات الفاخرة تتقاطر إلى قصر الأمير مترنيخ ، بينما كانت النوافذ المضاءة تنثر على الشوارع الباردة دفئًا ذهبيًا يشبه الحلم.

في الداخل ، كانت الموسيقى تنساب من آلات الكمان كجدول ماء يمر بين أشجار الربيع ، والشموع المعلقة في الثريات البلورية ترتجف ألسنتها الصغيرة فوق الرؤوس المزهوة بالرتب والألقاب والأوسمة.

هناك، في قلب القاعة ، وقفت زوجة مترنيخ. كانت تتحرك بين الضيوف بهدوء امرأة اعتادت أن تكون محور الأنظار دون أن تطلب ذلك. ابتسامتها محسوبة ، ونظراتها واثقة ، وخطواتها تحمل ذلك الكبرياء الهادئ الذي لا يولد إلا من يقين عميق بالسعادة.

كانت تؤمن أنها المرأة الأكثر حظًا في أوروبا. زوجها هو الأمير الأشهر ، والدبلوماسي الأبرع ، والرجل الذي تتغير خرائط القارة أحيانًا بكلمة ينطق بها أو رسالة يوقعها.

وكانت تؤمن أيضًا ، وربما للمرة الأولى في حياتها دون تحفظ، أن الحب قد اختار أن يسكن بيتها.

لكن الحياة، كما يقول الحكماء ، لا تكسر الإنسان حين يجهل الحقيقة ، بل حين يكتشف أن الحقيقة كانت تقف أمامه منذ زمن وهو يرفض النظر إليها.

في تلك اللحظة تحديدًا ، ظهرت المرأة الغجرية. لم تكن تشبه بقية النساء اللواتي حضرن الحفل .

كانت ترتدي ثيابًا بسيطة مقارنة بفخامة القاعة ، ويغطي رأسها وشاح داكن أخفى معظم ملامحها ، غير أن عينيها كانتا تحملان بريقًا غريبًا ؛ بريق امرأة جاءت وفي قلبها قرار لا رجعة عنه.

اقتربت من الأميرة بخطوات هادئة.

قالت زوجة مترنيخ بنبرة رقيقة يغلب عليها شيء من الدهشة :

لم أكن أعلم أنني دعوت إلى الحفل قارئات الطالع. من تكونين يا سيدتي ؟

رفعت الغجرية رأسها قليلًا.

ابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت : آنسة يا أميرة، لا سيدة.

ثم انحنت قليلًا وأضافت :

ألا ترافقينني إلى الشرفة ؟ سأقرأ لك المستقبل.

ابتسمت الأميرة ابتسامة واثقة. كم بدت لها الفكرة مضحكة وبريئة في آن واحد. قالت :

أشكرك يا آنسة، لكنني أكاد أعرف مستقبلي جيدًا.

توقفت لحظة ، ثم أضافت بابتسامة أكثر دفئًا :

سيكون سعيدًا بلا شك... مع الأمير مترنيخ.

مرت لحظة صمت قصيرة.

ثم سألت الغجرية بهدوء يكاد يكون مؤلمًا :

ومع من غير كليمان ؟

ارتسمت على وجه الأميرة ملامح ضيق خفيف.

بالطبع مع كليمان. نحن زوجان مثاليان يا آنسة.

كلمة مثاليان خرجت من فمها بثقة كاملة.

وكانت تلك الثقة بالذات هي ما أثار في قلب الغجرية شيئًا يشبه الشفقة.

قالت المرأة المجهولة : ربما تغيرين رأيك إن غادرت الحفل الآن، وصعدت إلى غرفة مكتب زوجك، وفتحت الدرج السفلي في مكتبه، وقرأت الرسائل الموجودة فيه.

تجمدت الابتسامة على وجه الأميرة. للمرة الأولى شعرت أن الكلمات لم تعد لعبة اجتماعية عابرة.

قالت ببرود أرادت له أن يكون حاسمًا :

أرجوك يا آنسة، أنت تعيقينني عن الاهتمام بضيوفي.

أومأت الغجرية برأسها.

أنت محقة تمامًا.

ثم أخرجت من جيبها مفتاحًا صغيرًا من الفضة.

رفعت المفتاح أمام عيني الأميرة وقالت :

لكن لا تدعي فرصة قراءة تلك الرسائل تضيع منك.

وتابعت بنبرة هادئة :

بالمناسبة، الدرج مغلق بالمفتاح... والمفتاح معي.

وضعت المفتاح في يدها وأضافت :

وأنا لست بخيلة به عليك.

ثم اختفت وسط الحشود كما تختفي الأشباح في الضباب.

بقيت الأميرة واقفة مكانها. تنظر إلى المفتاح. قطعة معدنية صغيرة. كم يبدو الحديد بريئًا أحيانًا، وكم يحمل من المصائر داخله.

حاولت أن تضحك. حاولت أن تقنع نفسها بأن الأمر مجرد مكيدة سخيفة.

لكن الشك، كما يقول الحكماء ، يشبه قطرة الحبر؛ ما إن تسقط في الماء حتى يستحيل فصلها عنه.

قال صوت داخلها : إنها كاذبة.

وقال صوت آخر : وإن لم تكن ؟

كليمان لا يفعل ذلك. ولماذا إذن المفتاح ؟ ربما سرقته. ولماذا مكتب زوجك تحديدًا ؟

كانت تعرف أن الفضول عيب. لكن الفضول حين يتعلق بالقلب لا يعود فضولًا، بل يصبح خوفًا من أن يكون العمر كله قد بُني فوق وهم.

وغادرت القاعة. لم ينتبه أحد إلى خروجها. فالناس في الحفلات يرون الأضواء أكثر مما يرون البشر.

صعدت الدرج الطويل المؤدي إلى مكتب الأمير. كانت خطواتها بطيئة. وفي كل درجة كانت تتمنى أن تجد الباب مغلقًا أو المفتاح غير مناسب أو الدرج فارغًا.

أحيانًا لا يطلب الإنسان من القدر السعادة ، بل يطلب فقط أن يثبت له أن مخاوفه كاذبة.

دخلت المكتب. كان كل شيء مرتبًا بعناية مترنيخ المعروفة. الكتب مصطفة. الأوراق منظمة. رائحة الحبر والجلد القديم تملأ المكان.

اقتربت من الدرج السفلي. توقفت. ارتجفت يدها. ثم أدخلت المفتاح. دار المفتاح بسهولة.

وهنا فقط شعرت أن قلبها توقف عن النبض. فتحت الدرج. وكانت الرسائل هناك. كثيرة. أكثر مما ينبغي. وأكثر مما تستطيع المغفرة احتماله.

جلست ببطء. فتحت الرسالة الأولى. ثم الثانية. ثم الثالثة. وكان الاسم يتكرر في النهاية كطعنة تتكرر في الموضع نفسه :

لورا. لورا. لورا.

كانت الكلمات مشتعلة. اعترافات. اشتياق. وعود. حنين.

ولهفة لا تكتبها امرأة إلا إذا كانت تؤمن أن قلب الرجل المقابل لها أصبح ملكًا لها.

أغلقت الرسائل. ثم فتحتها من جديد.

كأن العقل يرفض التصديق رغم أن العينين رأتا الحقيقة بالفعل.

بعض الحقائق لا تؤلم لأنها مفاجئة ، بل لأنها تفسر أشياء كثيرة كنا نتعمد تجاهلها. تذكرت سفره المتكرر. تذكر شروده أحيانًا. تذكر ابتساماته الغامضة. تذكرت أشياء كثيرة لم تكن تبدو مهمة من قبل.

قالت في داخلها : إذن كان كل شيء حقيقيًا.

ثم همست : أم أن الحب يجعلنا نرى ما نريد ونغفل ما لا نريد ؟

في تلك الليلة لم تبكِ. هناك حزن يتجاوز الدموع.

قاطعتنا زميلتنا قائلة : أتقصد أن الأميرة قرأت الرسائل فعلًا ؟

ابتسم الكونت جرونوالد ابتسامة حزينة وقال : هذا بالضبط ما حدث.

ثم أشعل غليونه وأكمل :

لكن المفاجأة الحقيقية لم تكن هنا.

ظنت لورا أنها نجحت . ظنت أنها هدمت الجدار الأخير بين الأمير وزوجته. ظنت أن الطريق أصبح مفتوحًا أمامها. غير أن القلوب البشرية لا تسير دائمًا وفق الحسابات. فما يبنيه الهوى تهدمه الكرامة أحيانًا.

وبعد أسابيع قليلة ، وصلت إلى لورا رسالة قصيرة من مترنيخ. كان يدعوها إلى لقائه في دار السفارة. ليلاً. وحدها.

قرأتها مرات عديدة. وكان الشيطان يهمس لها بما يحب الشيطان دائمًا أن يهمس به للبشر :

لقد انتصرتِ. اختاركِ أخيرًا.

جاءت تلك الليلة في أجمل ثيابها. تعطرت بعطرها المفضل. وقفت طويلًا أمام المرآة.

كانت ترى في انعكاسها امرأة انتصرت على زوجة أمير أوروبا الأشهر. وكان الغرور يزين لها كل شيء. فالغطرسة لا تعمي العيون فقط، بل تعمي البصيرة أيضًا.

وصلت إلى السفارة. استقبلها مترنيخ بنفسه. كان هادئًا على نحو غريب. هادئًا أكثر مما ينبغي.

تحدث معها قليلًا في أمور عامة.

ثم ساد الصمت. ظنت أن الصمت خجل. لكنه كان شيئًا آخر تمامًا.

اقتربت منه. ألقت بنفسها نحوه محاولة احتضانه. حاولت أن تقبله.

لكنه ابتعد عنها بهدوء. لا بعنف. ولا بغضب. بل بذلك البرود المهذب الذي يكون أحيانًا أشد قسوة من الإهانة نفسها.

نظرت إليه مذهولة.

أما هو فرفع يده وصفق مرة واحدة. فُتح الباب. دخل ثلاثة من رجال السفارة. وكانوا يحملون صينية فضية كبيرة. وعليها... رسائل. رسائل كثيرة. رسائل كثيرة جدًا.

عرفتها من النظرة الأولى. كانت رسائلها هي. شعرت بأن الدم انسحب من وجهها.

قال مترنيخ بهدوء قاتل :

ـــيؤسفني يا جنرالة إبرانتيس أن أضطر إلى إشهادك على حرق رسائلك إليّ.

ثم التفت إلى الرجال وقال :

هيا يا سادة... ألقوا بهذه القمامة واحدة تلو الأخرى في نار المدفأة.

بدأت الرسائل تسقط في النار. ورقة. ثم أخرى. ثم أخرى. كانت ألسنة اللهب تلتهم الكلمات التي كتبتها ليالي طويلة. تلتهم الشوق. والانتظار. والوهم.

كل رسالة كانت تحترق، وكان معها جزء من كبريائها يحترق أيضًا. وقفت عاجزة عن الكلام.

أما مترنيخ فظل واقفًا يراقب النار. بلا ابتسامة. بلا غضب. بلا شفقة.

قال أخيرًا : الحب قد يكون خطأً بشريًا مفهومًا.

ثم نظر إليها مباشرة وأضاف :

لكن تحويل الخطأ إلى ابتزاز أو مؤامرة هو أمر آخر.

ساد الصمت.

وكان صوت احتراق الورق هو الشيء الوحيد الذي يسمع في الغرفة.

قالت بصوت مرتجف : لقد أهنتني.

أجابها : لا يا سيدتي.

ثم أضاف بعد لحظة : الإنسان لا يهينه خصومه، بل تهينه أفعاله حين تعود إليه.

خفضت رأسها. ولم تجد ما تقوله.

فالكلمات التي تخرج من القلب قادرة على صنع المعجزات، لكنها تصبح عاجزة تمامًا عندما تقف أمام الحقيقة.

غادرت السفارة تلك الليلة مكسورة.

أما النار فاستمرت تلتهم الرسائل حتى آخر ورقة. وحين انتهى كل شيء ، بقي الرماد وحده. والرماد ، كما يقول الحكماء ، هو الذاكرة الأخيرة للأشياء التي احترقت ولم تعد قادرة على العودة.

سألت زميلتنا بصوت خافت : لقد ألحق بها إهانة لا تُغتفر يا كونت.

نظر الكونت إلى النافذة طويلًا. ثم قال : ربما.

وصمت قليلًا قبل أن يتابع :

لكن التاريخ لا يحاكم البشر بما يشعرون به، بل بما يفعلونه تحت سلطان ذلك الشعور.

ثم أضاف : الحب قوة عظيمة، لكنه يصبح خطرًا حين يتحول إلى رغبة في الامتلاك. والغيرة شعور إنساني، لكنها تصبح سمًا حين تتحول إلى رغبة في الهدم. أما الكبرياء، فهو أجمل ما يملكه الإنسان وأشد ما يدمره في الوقت نفسه.

رفع رأسه وقال : تعلمت من هذه الحكاية أمرًا واحدًا.

سألناه : وما هو ؟

ابتسم ابتسامة شاحبة وقال:

أن القلوب تشبه الدول الكبرى؛ لا تسقط غالبًا بسبب الأعداء الذين يقفون خارج الأسوار، بل بسبب الباب الصغير الذي يُترك مفتوحًا من الداخل.

رسالة أخيرة

وما هي إلا لحظات حتى أغمى عليها.

حملها الخدم إلى عربتها التي كانت تنتظر أمام باب السفارة، بينما كانت باريس ، المدينة التي تعرف كل شيء ، تستعد لتضيف قصة جديدة إلى حكاياتها التي لا تنتهي.

⊥

وفي صباح اليوم التالي، جلست لورا إلى مكتبها.

كانت النافذة مفتوحة ، والسماء رمادية ، وكأن النهار نفسه كان يرتدي ثياب الحداد.

أمامها ورقة بيضاء.

وحين يكون القلب ممتلئاً بالألم ، تصبح الورقة البيضاء أخطر من ساحة معركة.

أمسكت القلم. ترددت. ثم بدأت تكتب.

كانت تلك الرسالة أغرب رسائلها وأكثرها وجعاً.

كتبت : كليمان... لم يعد أمامي سوى باب الموت ألجه بلا أسف ولا ندم، وهذا ما سوف أفعله. ولا تظن أنني أخدعك أو أبتز عاطفتك أو أبحث عن شفقة لا أريدها.

سوف تسمع بموتي عند ظهر اليوم. في الساعة الثانية عشرة تماماً سأبتلع كمية كبيرة من أقراص الأفيون.

أيها الحبيب... لكل مقبل على الموت أمنية أخيرة. أما أمنيتي فهي أن أبتلع قرص الموت من يدك أنت. أنت الذي عشت من أجلك، وأموت من أجلك. فهل تحقق لي هذه الأمنية يا كليمان ؟ تعال ولو للحظة واحدة. أنت وحدك الذي أريده أن يغلق الجفنين على العينين اللتين لم تسعدا في الدنيا إلا برؤية وجهك.

تعال يا كليمان... وإذا لم أستطع أن أكون لك في الدنيا، فسأكون لك في العالم الآخر.

ووقعت الرسالة باسم واحد فقط : لورا.

⊥

سأل أحد الحاضرين : وهل هرع إليها الأمير مترنيخ ؟

ابتسم المؤرخ ابتسامة حزينة وقال : كلا.

كان يظنها حيلة جديدة من حيل النساء العاشقات. كان يعرف اندفاعها ، ويعرف تهديداتها السابقة ، فظن أن الرسالة ليست سوى محاولة أخيرة لاستعادته.

ولعل الرجال الذين اعتادوا الإعجاب يخطئون أحياناً حين يظنون أن جميع الدموع متشابهة. فالدموع مثل البشر؛ لكل دمعة تاريخها الخاص.

قال السائل : أتعني أنها فعلتها حقاً ؟

أجاب المؤرخ : أجل.

ابتلعت أقراص الأفيون.

وحين أدرك المحيطون بها ما فعلت ، كانت بين الحياة والموت ، تتنفس بصعوبة ، وتتمتم باسم رجل لم يكن موجوداً إلى جوارها.

قالت وهي تهذي : أخبروه أنني كنت أحبه... لا تقولوا له إنني كنت مجنونة... قولوا له فقط إنني كنت أحبه...

ونجت بأعجوبة.كأن الموت نفسه تراجع أمام ذلك الحب المجنون.

⊥

تساءلت الكونتيسة جرونوالد :

وأين كان الزوج ؟ أين كان الجنرال جونو ، دوق أبرانتيس ، بينما زوجته تعبث بشرفه علانية ، وباريس كلها ترى وتسمع وتضحك ؟

تنهد المؤرخ طويلاً.

ثم قال : كان ذلك الرجل واحداً من ضحايا المجد النابليوني.

قاتل في الحروب، وانتصر في المعارك، لكنه هزم في بيته. وما أقسى أن ينتصر الرجل على الجيوش ويعجز عن الانتصار على حزنه.

لقد حاول جونو كثيراً إصلاح زوجته.

حاورها. غضب منها. سامحها. عاد فغضب من جديد.

لكنها كانت تمضي حيث يقودها قلبها ، لا حيث يقودها العقل أو الواجب.

وكان أشد ما يحزنه أن نابليون بونابرت نفسه لم يكن يرى في الأمر فضيحة تستحق الوقوف عندها.

بل إن الإمبراطور، المشغول بإعادة رسم حدود أوروبا ، كان ينظر إلى تلك العلاقات الاجتماعية العابرة باعتبارها جزءاً من لعبة السياسة الكبرى.

وكان مترنيخ بالنسبة إليه دبلوماسياً لا يجوز إغضابه.

وهكذا وجد جونو نفسه وحيداً في معركته. وحيداً أمام زوجة لا تسمعه. ووطن لا يرحمه. ومجتمع يسخر منه. فليس هناك أقسى على الرجل من ضحكات الناس حين تمس كرامته.

⊥

ومع مرور الأيام، ضاق الأمير مترنيخ بلورا.

لم يكن يكرهها. لكنه لم يحبها بالقدر الذي أحبته هي.

وهناك فرق كبير بين أن تحب امرأة رجلاً، وأن يحبها الرجل بالمقدار نفسه. فالمشاعر غير المتوازنة تتحول مع الزمن إلى عبء على الطرفين.

وأخيراً كتب مترنيخ إلى إمبراطوره في فيينا يطلب نقله من باريس إلى سفارة أوروبية أخرى.

كان يريد الرحيل. لا من المدينة فقط. بل من الذكرى أيضاً.

قال أحد الجالسين :

وهل استجاب الإمبراطور لطلبه ؟

ابتسم المؤرخ وقال : بل وأكثر من ذلك.

فالإمبراطور لم يجد أفضل من مترنيخ ليكون وزيراً لخارجية الإمبراطورية النمساوية.

وسرعان ما صعد نجمه حتى صار الرجل الذي يرسم حدود أوروبا بقلمه كما يرسم الرسام لوحته بريشته.

ولم يترك منصبه قرابة نصف قرن إلا إلى القبر.

ولقبه الأوروبيون بألقاب كثيرة : مهندس الخريطة الأوروبية. وزير الخارجية الأبدي. الرجل الذي يحرك الملوك كما يحرك لاعب الشطرنج قطعه فوق الرقعة.

أما النساء فكن يطلقن عليه لقباً آخر : معشوق أوروبا الصامت.

فقد كان يعرف كيف يصنع المسافة التي تزيد القلوب تعلقاً به. وكان يدرك أن الغموض نصف الجاذبية.

⊥

وما إن غادر باريس حتى شعرت لورا أن المدينة كلها أصبحت فارغة. الشوارع نفسها. المقاهي نفسها. الحدائق نفسها. لكن شيئاً ما اختفى من العالم.

إن الإنسان لا يدرك أحياناً أن شخصاً واحداً كان يشغل الكون كله حتى يغيب.

غادرت باريس إلى سويسرا. قالت إنها تحتاج إلى الراحة. لكن الحقيقة أنها كانت تحتاج إلى القرب منه. إلى القرب من الهواء الذي يتنفسه. من الطرق التي يسلكها. من المدن التي يمر بها. فالعاشق لا يبحث عن الحبيب فقط، بل يبحث عن كل ما يذكره به.

سألت الكونتيسة : ولماذا لم تسافر إلى فيينا ؟

أجاب المؤرخ : لأن أوروبا يومها كانت مشتعلة بالحروب.

كان نابليون قد أعلن الحرب على النمسا ، وكانت الجيوش تتحرك فوق القارة كالسحب السوداء.

الحدود تغلق. والمدافع تتكلم. والقادة يرسمون الخرائط بالدم.

في زمن الحرب يصبح الحب ترفاً نادراً. لكن القلوب لا تعترف بالحروب. فهي تواصل نبضها حتى تحت أصوات المدافع.

قال أحد الحضور : ولماذا لم يمنعها زوجها جونو من السفر ؟

ابتسم المؤرخ ابتسامة يائسة وقال : لأنه كان مع نابليون في حملاته العسكرية.

ثم إن الحقيقة أكثر مرارة من ذلك.

فحتى لو كان في باريس، لما استطاع أن يمنعها. لقد تجاوز الأمر حدود السلطة الزوجية.

كانت لورا تعيش داخل عالم لا يدخله أحد سواها وسوى مترنيخ. أما زوجها، فقد أصبح مجرد ظل بعيد على أطراف ذلك العالم.

سكت المؤرخ قليلاً.

ثم أضاف بصوت منخفض : كان جونو يقترب رويداً رويداً من الجنون. فليس الجنون دائماً مرضاً يولد فجأة.

أحياناً يكون سلسلة طويلة من الانكسارات الصغيرة. إهانة فوق إهانة. وحزن فوق حزن. وصمت فوق صمت.

حتى يستيقظ الإنسان ذات صباح فلا يجد نفسه التي عرفها طوال عمره.

كان يسأل نفسه ليلاً : كيف خسرت زوجتي وأنا الذي لم أخسر معركة ؟ كيف استطاع رجل آخر أن ينتصر عليّ دون أن يشهر سيفاً ؟ كيف يمكن لقلب امرأة أن يصبح أرضاً أجنبية لا يملك زوجها حق الدخول إليها ؟

وكانت هذه الأسئلة تأكله ببطء. فالإنسان قد يتحمل الفقر. ويتحمل المرض. ويتحمل الهزيمة. لكنه نادراً ما يحتمل السخرية.

⊥

وفي إحدى الليالي وقف جونو وحده أمام المرآة.

تأمل وجهه طويلاً. ورأى شعيرات الشيب التي تسللت إلى رأسه. ورأى التعب في عينيه.

ثم قال لنفسه : لقد قاتلت من أجل فرنسا. قاتلت من أجل المجد. قاتلت من أجل الإمبراطور. لكنني لم أتعلم كيف أقاتل من أجل قلب امرأة.

ثم ضحك. ضحكة قصيرة ومكسورة.فالرجال حين يعجزون عن البكاء يضحكون.

⊥

أما لورا، فكانت في مكان آخر من أوروبا ، تنظر من نافذة غرفتها نحو الجبال السويسرية البيضاء.

كانت الثلوج تتساقط بهدوء.

وتساءلت : هل يشعر بي الآن ؟ هل فكر بي هذا الصباح ؟ هل مر اسمي بخاطره ولو للحظة واحدة ؟

ثم أغمضت عينيها. وأدركت الحقيقة التي كانت تهرب منها منذ سنوات :

بعض الناس نحبهم لا لكي يكونوا لنا، بل لكي نتعلم من خلالهم مقدار ما يستطيع القلب البشري احتماله. فليس كل حب خُلق لينتهي بالزواج. وليس كل لقاء كُتب له أن يدوم.

هناك حب يشبه الشهب؛ يضيء السماء كلها للحظة، ثم يختفي، لكنه يترك أثره في القلب إلى الأبد.

⊥

أنهى المؤرخ حديثه وقال :

تلك يا سادتي ليست قصة خيانة ولا قصة عشق فحسب. إنها قصة بشر. والبشر، مهما تغيرت العصور، يظلون يحملون الضعف نفسه، والخوف نفسه، والحاجة نفسها إلى الحب. فالتاريخ لا يصنعه الملوك وحدهم. بل تصنعه أيضاً امرأة تبكي في غرفة مغلقة، ورجل يبتسم بينما قلبه ينهار بصمت.

ولعل الحكمة الأصدق في هذه الحكاية أن الحب حين يفقد كرامته يتحول إلى عبودية، وأن القلب الذي يجعل شخصاً واحداً مركز الكون كله يعرض نفسه للخراب إذا غاب ذلك الشخص.

ومع ذلك ، سيظل البشر يحبون. وسيظلون يكررون الأخطاء نفسها. لأن العقل يتعلم من التاريخ، أما القلب فلا يتعلم إلا من جراحه الخاصة.

كشف الجنون
وجهه تحت أضواء الإمبراطورية الآفلة

كان جونو يحمل في أعصابه ميراثاً قديماً لا يُرى بالعين ، لكنه كان أثقل من أن تخفيه الابتسامات أو الأوسمة العسكرية أو صخب الانتصارات. لقد ورث عن أمه ذلك الاضطراب العصبي الغامض الذي ينام سنوات طويلة في أعماق الروح، ثم يستيقظ فجأة حين تهب على الإنسان رياح الهزائم والخسارات الكبرى.

وكانت الهزيمة قد جاءت هذه المرة بحجم إمبراطورية.

منذ أن ابتلعت الثلوج جيش فرنسا في سهول موسكو البيضاء ، لم يعد شيء كما كان. عاد الجنود أشباحاً تمشي على قدمين ، وعادت الخيول أقل عدداً من الفرسان ، وعاد المجد الفرنسي نفسه مكسور الجناح، كطائر أصابته رصاصة في السماء فسقط قبل أن يبلغ عشه.

أما الإمبراطور بونابرت فقد سبق الجميع إلى باريس ، كمن يسابق الزمن نفسه. كان يدرك أن العروش لا تنتظر المتأخرين، وأن دوق دانجيان، أو غيره من أبناء آل البوربون، قد يحاول القفز إلى العرش الذي انتزعه نابليون بالسيف والنار والعبقرية.

وكان جونو، دوق إبرانتيس حديث اللقب ، ضمن مرافقي الإمبراطور في تلك الرحلة الثقيلة.

لكن قلب الرجل لم يكن في باريس. كان في مكان آخر. في بيت يفتح بابه مع المساء، فتخرج منه لورا مبتسمة، تركض نحوه كما كانت

تفعل في السنوات الأولى، قبل أن تتعلم القلوب معنى الخيانة، وقبل أن تكتشف الأرواح أن الحب أحياناً لا يموت، بل يتحول إلى مرض.

كان يهمس لنفسه طوال الطريق :

ستكون في انتظاري... لا بد أنها ستكون هناك... ربما أخطأت الرسائل... ربما بالغ الناس في الشائعات...لورا لا يمكن أن ترحل.

لكن باريس استقبلته بالأخبار لا بالأحضان. قيل له إن الدوقة تقيم في سويسرا، في منتجع هادئ للعلاج. ثم قيل إنها تقيم في قصر صغير يملكه الأمير مترنيخ في ضواحي فيينا. ثم قيل ما هو أشد قسوة من ذلك كله :

إنها قبلت أن تعمل وصيفة لزوجة الأمير مترنيخ، فقط لكي تراه كل صباح، ولكي تسمع صوته كل مساء، ولكي تمر بجواره ولو كأنها واحدة من الخدم.

ظل جونو صامتاً. أحياناً تكون الصدمة أكبر من أن تنتج دمعة. وأحياناً يكون الألم أشد من أن يجد طريقه إلى الكلمات.

نظر إلى الإمبراطور بعينين شاحبتين وقال بصوت متهدج :

هل هذا صحيح يا صاحب الجلالة ؟

تردد نابليون لحظة. كان يعرف الحقيقة. لكنه كان يعرف أيضاً أن الحقيقة قد تكون أحياناً رصاصة في رأس رجل يقف بالفعل على حافة الجنون.

فقال بهدوء : لا تصدق الشائعات يا عزيزي جونو. لورا مريضة ، وهي في سويسرا للعلاج، لا أكثر.

أشرق وجه الدوق فجأة كما يشرق وجه طفل صدق أن أباه سيعود من الحرب غداً.

إذن سأذهب إليها.

رفع نابليون رأسه بسرعة : لا.

لماذا ؟

لأنني بحاجة إليك هنا في باريس.

لكن زوجتي...

قاطعه الإمبراطور بنبرة حازمة : سأرسل من يعيدها إليك بنفسي.

ساد الصمت.

ثم ارتجفت شفتا جونو كمن يحاول أن يمنع قلبه من البكاء.

ستعود إذن ؟

نعم.

وستعود أيامنا القديمة ؟

لم يجب نابليون.

أما جونو فقد تابع كلامه كمن يحدث نفسه : ستعود أمسياتنا الطويلة... ستعود ضحكتها... ستجلس قرب المدفأة وتقرأ لي الشعر... وستنسى ذلك الرجل...

خفض الإمبراطور عينيه. كان يكذب. لكنه كان يكذب رحمة.

فبعض الأكاذيب لا تُقال لخداع البشر، بل لإنقاذهم من السقوط.

⊥

غير أن لورا كانت تعيش عالماً آخر. عالماً لا مكان فيه لزوج اسمه جونو. ولا لإمبراطورية اسمها فرنسا. ولا حتى لحرب تلتهم أوروبا. كان هناك اسم واحد فقط يسكن ذلك العالم :

كليمنس فون مترنيخ.

كانت تسير في شوارع المدن السويسرية كأنها تمشي داخل حلم طويل، تردد اسمه بين الحين والآخر، وتحدث الهواء كما لو كان واقفاً أمامها.

كليمنس...

ثم تصمت قليلاً.

أعرف أنك تحبني.

ثم تبتسم.

أعرف أنهم يمنعونك من العودة.

وكان المارة يلتفتون إليها في دهشة. بعضهم يبتسم شفقة. وبعضهم يضحك سخرية.

أما هي فلم تكن ترى أحداً.

فالإنسان حين يحب بجنون ، لا يعود يرى العالم كما هو ، بل كما يشتهي أن يكون.

ولم تكن لورا مجنونة.

كلا.

كانت فقط أسيرة وهم جميل. كانت تؤمن حتى اللحظة الأخيرة أن مترنيخ يحبها كما تحبه، وأنه لا يبتعد عنها إلا خضوعاً لسلطة زوجته الأميرة إليانور. وكان الوهم، إذا طال عمره، يتحول إلى حقيقة داخل القلب.

أنفقت ثروتها على المنجمين والسحرة وقارئي الطالع. وكان كل واحد منهم يبيعها الحلم نفسه بثمن جديد.

سيعود إليك قريباً.

النجوم تبشر بذلك.

هناك امرأة تمنعه الآن.

لكنها ستموت.

وكانت إليانور بالفعل تحتضر إثر إصابة خطيرة تعرضت لها في حادث دموي ارتبط بأعداء زوجها السياسيين.

فكانت لورا ترى في مرضها بشارة. وترى في موت امرأة أخرى جسراً نحو سعادتها الخاصة.

وهكذا يفعل الحب حين يمرض. إنه يجعل الإنسان قادراً على تبرير كل شيء.

⊥

أما جونو فكان يغرق ببطء.

في البداية كان الأرق. ثم الصمت الطويل. ثم الحديث مع نفسه ثم نوبات الغضب المفاجئة. ثم الضحك بلا سبب.

وكان الأطباء يراقبونه في قلق .

أما نابليون فكان يشعر بتأنيب خفي.

لقد قاد هذا الرجل في الحروب. وأرسله إلى الموت مرات كثيرة. لكنه لم يستطع أن يحميه من امرأة واحدة.

وحين أرسل الإمبراطور إلى لورا رسالة أخيرة، كانت أقرب إلى الأمر العسكري منها إلى الرجاء:

قليلاً من الحياء يا دوقة إبرانتيس.

في مثل هذه اللحظات تكون الزوجة الفرنسية المخلصة إلى جانب زوجها .عودي إلى باريس قبل أن أضطر إلى إعادتك بالقوة. رفضت. رفضت بهدوء بارد.

فأرسل نابليون رجاله. وأُعيدت إلى باريس رغم إرادتها.

⊥

قرر جونو إقامة حفل كبير احتفاءً بعودة زوجته. ربما كان يريد أن يقنع الناس بأن كل شيء بخير. وربما كان يريد أن يقنع نفسه بذلك.

وكانت باريس كلها تدرك أن الإمبراطورية تتداعى. السفن الغارقة أول من يشعر بالماء المتسلل إلى جوفها.

لذلك جاء إلى الحفل أولئك الذين لم يغادروا بعد سفينة نابليون. جنرالات. نبلاء. دبلوماسيون. سيدات يحملن آخر ما تبقى من بريق الإمبراطورية على أعناقهن وأصابعهن.

كانت الموسيقى تعلو. والشموع تضيء القاعات الواسعة. والكريستال يلمع فوق الموائد.

وكان الجميع يتظاهر بالسعادة. ففي الأزمنة المضطربة يصبح التظاهر فضيلة اجتماعية.

قال أحد الضيوف :

يبدو أن الدوق تحسن كثيراً.

أجاب آخر :

نعم ، يبدو أكثر هدوءاً.

أما الكونت جرونوالد فظل صامتاً. كان يراقب السلالم المؤدية إلى الطابق العلوي بعين قلقة.

وفجأة... ساد الصمت. توقفت الموسيقى. التفت الجميع نحو أعلى الدرج. وكان جونو يقف هناك. عارياً تماماً.كما ولدته أمه.

لم يكن على جسده سوى القبعة العالية المزينة بالريش الملون، وأوسمته العسكرية المعلقة على صدره العاري.

بدا المشهد للحظة كأنه كابوس خرج من عقل رسام مجنون.

صرخت النساء. تراجعن مذعورات. أما الرجال فتجمدوا في أماكنهم. ركض الحراس نحوه. حاولوا تغطيته. لكنه دفعهم بعيداً بقوة مدهشة.

ثم تقدم نحو النافذة المفتوحة المطلة على الحديقة. كان الهواء البارد يضرب جسده المرتجف. أما عيناه فكانتا تلمعان ببريق غريب.

رفع ذراعيه نحو السماء وصاح : هل تعرفون من أنا ؟

ساد الصمت.

ثم صاح مرة أخرى : قولوا لي... من أنا ؟

قال أحد الضباط بصوت مرتعش : أنت دوق إبرانتيس يا سيدي.

ضحك جونو ضحكة طويلة.

لا...

ثم أشار إلى أوسمته.

أنا هذه القطع المعدنية.

وأشار إلى القبعة.

وأنا هذه الريشة.

ثم وضع يده على صدره.

أما الرجل الذي كان هنا... فقد مات منذ زمن.

اقترب الكونت جرونوالد بحذر.

سيدي... أرجوك.

نظر إليه جونو طويلاً.

ثم قال : أخبرني يا كونت... كم حرباً يحتاج الرجل ليصبح بطلاً ؟

لا أدري.

وكم خيانة يحتاج ليصبح مجنوناً ؟

لم يجب أحد.

كانت القاعة كلها تبكي بصمت.

أما جونو فقد تابع : لقد قاتلت من أجل فرنسا... قاتلت من أجل الإمبراطور... قاتلت من أجل المجد... ثم ابتسم ابتسامة موجعة. لكنني خسرت أمام رجل لم يحمل سيفاً.

نظر إلى لورا. كانت واقفة في الطرف الآخر من القاعة. باردة. صامتة. بعيدة.

كأن بينهما بحراً لا غرفة واحدة.

قال لها :

هل أحببتني يوماً ؟

لم تجب.

كرر السؤال.

ولو يوماً واحداً فقط ؟

ظلت صامتة.

وأدرك جونو الإجابة. فالسكوت أحياناً أكثر قسوة من الكلمات.

همس :

إذن كنت أحارب وحدي طوال الوقت.

ثم رفع رأسه نحو الحاضرين وقال :

تذكروا هذا جيداً... إن الإنسان لا يكسره الأعداء دائماً. أحياناً تكسره الأشياء التي أحبها أكثر من نفسه.

اقترب الحراس منه مرة أخرى. وهذه المرة لم يقاوم. سمح لهم بأن يغطوه ويقودوه إلى غرفته.

وكان يسير بينهم مطأطئ الرأس كجندي عاد أخيراً من آخر معاركه.

⊥

وفي تلك الليلة، وبينما كانت باريس تنام على أصوات العربات البعيدة، جلس جونو قرب نافذته ينظر إلى السماء. كانت النجوم باردة. وبعيدة. كالأحلام القديمة.

قال في نفسه :

كم هو غريب أمر البشر. نقهر المدن ولا نقهر قلوبنا. نفتح العواصم ولا نستطيع فتح باب واحد أغلقه الحب. نهزم الجيوش، ثم نهزم أمام ذكرى.

أغمض عينيه. وكان يشعر أن شيئاً داخله يتكسر بهدوء. ليس القلب. فالقلب كان قد انكسر منذ زمن. بل العقل نفسه. ذلك الحارس الأخير للإنسان. وحين يسقط الحارس الأخير، تصبح الروح مدينة بلا أسوار.

وفي الخارج ، كانت أوروبا كلها تستعد لدفن إمبراطورية.

أما في الداخل ، فكان رجل واحد يدفن عالمه كله في صمت. ولعل التاريخ لا يذكر دائماً اللحظة التي تسقط فيها الدول.

لكنه لا ينسى أبداً اللحظة التي يسقط فيها الإنسان.

بين نافذة الجنون وأروقة فيينا

أين الدوقة؟ لماذا لا نحاول إعادته إلى غرفته في القصر ؟

خرج السؤال مرتجفًا من بين شفتي إحدى السيدات الواقفات عند مدخل الصالون الكبير ، بينما كانت العيون تتسمر على الرجل الواقف عند النافذة المفتوحة المطلة على حدائق القصر الغارقة في ضوء المغيب الأحمر.

كان المساء الأوروبي يهبط ببطء ، كما تهبط الهزائم الكبرى على قلوب الملوك والقادة ؛ لا ضجيج ، ولا صراخ ، بل ذلك الثقل البارد الذي يهبط على الأرواح دفعة واحدة ، فيحوّل الضحكات إلى همسات، والقصور إلى مقابر مؤقتة للأحلام.

قال أحد الخدم بصوت خافت :

حاولنا يا سيدتي... لكنه لا يعترف بأحد، ولا يسمع أحدًا.

تمتمت امرأة أخرى وهي تشبك أصابعها المرتجفة :

يا للعار...

لكن العار في تلك السنوات لم يكن أمرًا نادرًا في أوروبا.

كانت القارات كلها تعيش جنونها الخاص.

الأباطرة يصعدون كما تصعد النيازك ، ويسقطون كما تسقط أوراق الخريف. العرش الذي يبنى بالسيف يهزه سيف آخر ، والتاريخ لا يعرف الوفاء إلا للموت.

وفجأة دوى صوت جونو في القاعة.

كان صوته يحمل تلك الحدة الغريبة التي تجعل السامع عاجزًا عن التمييز: هل المتحدث رجل فقد عقله ، أم رجل رأى من الحقيقة ما جعل العقل نفسه عبئًا لا يحتمل ؟

صرخ : اسمعوا! اسمعوا !

ثم دار بعينيه بين الوجوه المذعورة.

لم يجبني أحد حتى الآن... من أنا ؟

ساد الصمت.

حتى عقارب الساعة المعلقة على الجدار بدت كأنها توقفت احترامًا لذلك السؤال المرعب.

من أنا ؟

ما أكثر ما يردده المجانين، وما أقل ما يجرؤ العقلاء على طرحه.

ابتسم جونو ابتسامة شاحبة وقال :

ستقولون : واحد من جنود الطاغية بونابرت.

ثم هز رأسه بعنف.

لا... لا... لست جنديًا.

اقترب خطوة من النافذة المفتوحة.

أنا طائر.

رفع ذراعيه كأنهما جناحان.

نعم ، طائر... وفي استطاعتي أن ألقي بنفسي من هذه النافذة ، وأطير فوق أوروبا كلها، فوق الجبال والأنهار والحدود والأسلاك والحروب، حتى أصل إلى فيينا.

كانت عيناه تلمعان بحمى غريبة.

سيكون صديقي العزيز الأمير مترنيخ في استقبالي هناك.

ثم ضحك.

ضحكة طويلة ، مجروحة ، أشبه بصوت زجاج يتحطم في كنيسة مهجورة.

انظروا !

صرخت النساء. اندفع الرجال نحوه. لكن الزمن أحيانًا يكون أسرع من الندم. ألقى بنفسه من النافذة.

وفي لحظة واحدة انتهى كل شيء. لم يعد هناك جنرال، ولا مجنون، ولا بطل من أبطال الإمبراطورية. فقط جسد محطم على الحجارة الباردة.

نجا من السقوط...

لكن ليس من القدر. أصيب بكسور مضاعفة، وظل يصارع الألم أربعة أيام كاملة قبل أن يموت متأثرًا بتسمم دموي.

أربعة أيام فقط. أربعة أيام كانت كافية لكي يدرك الجميع هشاشة الإنسان.

فالذي قاد الجيوش عبر القارات ، وعبر معه آلاف الجنود الأنهار والثلوج والنيران ، عجز عن عبور أربعة أيام في سرير المرض.

هكذا يذكرنا الموت دائمًا بحقيقته القديمة :

إن الإنسان مهما علا ، يبقى كائنًا من لحم وذاكرة وخوف.

⊥

قلت للكونت بعد لحظة صمت طويلة :

لعل موته أعاد زوجته إلى صوابها ؟

رفع الكونت نظره نحو المدفأة المشتعلة.

بدا كأنه يبحث بين ألسنة النار عن سنوات مضت لن تعود.

ثم قال : لا أحد يعود تمامًا من المآسي الكبرى.

صمت قليلًا قبل أن يتابع :

الجنون لا يأتي دائمًا على هيئة صراخ أو هذيان ، أحيانًا يأتي على هيئة صمت طويل.

تنهد.

لشهر كامل لم تغادر غرفتها. كانت الستائر مغلقة دائمًا. لا تسمح لأحد بالدخول. لا تتحدث. لا تبكي. ولا حتى تنظر من النافذة.

كانت تجلس لساعات طويلة تحدق في الفراغ.

وما أقسى الفراغ حين يسكن الإنسان. فالمرء يستطيع أن يقاوم الفقر ، والمرض ، وحتى الهزيمة ، لكنه يعجز كثيرًا عن مقاومة الفراغ الذي يتركه الغياب.

قال الكونت : أخبرتني وصيفتها أنها كانت تردد جملة واحدة كل مساء:

كيف يستطيع العالم أن يستمر بعد أن يتوقف عالم إنسان واحد ؟

هز رأسه بأسى.

سؤال بسيط، لكنه من أصعب أسئلة الحياة.

⊥

مرت الأسابيع ببطء. ثم جاء يوم فتحت فيه الدوقة النافذة لأول مرة. كان الثلج قد بدأ يغطي الأشجار.وقفت طويلًا تنظر إلى السماء.

قالت وصيفتها إنها همست :

حتى السماء تتغير، فلماذا يطلبون من القلوب ألا تتغير ؟

بعد أيام قليلة غادرت إلى سويسرا. اختارت مدينة صغيرة بين الجبال. هناك حيث لا تصل أخبار البلاطات الملكية سريعًا، ولا يسمع الإنسان صدى المدافع كل صباح.

كانت تريد الهرب. لكن الإنسان لا يهرب من الأماكن بقدر ما يهرب من نفسه.

وكانت نفسها أسرع منها دائمًا. كل طريق كانت تسلكه كان يقودها إلى باريس. كل نافذة تذكرها بنافذة أخرى. كل مساء يذكرها بمساءات مضت. حتى الثلج الأبيض كان يذكرها بالرسائل القديمة.

قال الكونت : كانت تحمل صورة مترنيخ معها أينما ذهبت.

ولم تكن تنظر إليها كثيرًا. فالصور ليست ما يؤلم. الذي يؤلم حقًا هو ما تقوله الذاكرة للصورة.

⊥

ثم جاءت واترلو.

ذلك اليوم الذي لم يسقط فيه نابليون وحده. سقطت معه أحلام كاملة، وعصور كاملة، وصداقات وعداوات وحكايات حب كتبت على إيقاع المدافع.

في التاريخ لحظات تشبه الزلازل. تغير الخرائط، لكنها تغير البشر أكثر. وواترلو كانت واحدة منها.

ما إن سمعت الدوقة بخبر الهزيمة حتى عادت إلى الحياة فجأة.

قال الكونت : كأن نارًا انطفأت منذ سنوات اشتعلت دفعة واحدة.

وصلتها الأخبار عن انعقاد مؤتمر فيينا. فعرفت أنه سيكون هناك. الأمير مترنيخ. الرجل الذي أحبته أوروبا سياسيًا، وأحبته النساء إنسانيًا. الرجل الذي كان يبتسم للدبلوماسيين كما يبتسم لاعب الشطرنج لقطعه قبل تحريكها.

سافرت فورًا. لم تنتظر. ولم تتردد.

بعض اللقاءات لا تمنحنا الحياة فرصة ثانية لتأجيلها.

⊥

كانت فيينا يومها عاصمة العالم.

ملوك. أمراء. جنرالات. وزراء خارجية. راقصات. جواسيس. وشعراء.

كانت المدينة كلها تبدو وكأنها حفلة تنكرية هائلة يرتدي فيها الجميع أقنعة السياسة.

كانوا يرقصون في المساء ويعيدون رسم حدود القارات في الصباح.

وقد قيل يومها : مؤتمر فيينا لا يسير... بل يرقص.

لكن خلف الموسيقى كانت هناك دموع كثيرة لا يسمعها أحد.

⊥

دخلت الدوقة قصر المؤتمر. كانت تعرف الطريق جيدًا. ربما لأن القلب يحفظ الطرق التي تؤدي إلى من يحب أكثر مما تحفظها الخرائط.

عندما دخلت القاعة ورأته للمرة الأولى بعد سنوات طويلة ، شعرت أن الزمن كله اختفى فجأة.

كان واقفًا قرب نافذة عالية. ظهره مستقيم. ملامحه هادئة. لكن الزمن كان قد مر عليه أيضًا.

الحروب تترك آثارها حتى على الرجال الذين لا يحملون البنادق.

استدار. رآها.

وللحظة قصيرة جدًا سقطت الأقنعة الدبلوماسية كلها. لم يعد هناك أمير النمسا القوي. ولا سيدة المجتمع الشهيرة. فقط رجل وامرأة يحملان ذاكرة أثقل من الكلمات.

قال بهدوء : لورا...

أجابته : كليمان...

وكان في نطق الاسم كل ما لم تستطع الرسائل قوله.

ساد الصمت بينهما طويلًا. وأحيانًا يكون الصمت أصدق من الخطب الطويلة.

قال أخيرًا : مرت سنوات كثيرة.

ابتسمت بحزن. السنوات لا تمر على الجميع بالطريقة نفسها.

تأمل وجهها. تغيرتِ.

أجابت : الأحزان نحاتون بارعون.

ثم أضافت :

وأنت أيضًا تغيرت.

قال مبتسمًا : السياسة تجعل الرجال يشيخون أسرع من الحروب.

جلست. وظل واقفًا.

ثم قالت فجأة : لم آت لأتحدث عن الماضي.

كان يعرف أنها تكذب. فالبشر لا يسافرون آلاف الكيلومترات هربًا من الماضي، بل بحثًا عنه.

قال : إذن لماذا جئت ؟

رفعت رأسها نحوه. وفي عينيها تلك القسوة التي تولدها الخسارات الكبيرة.

لدي طلب واحد.

صمت.

لا ترسلوا الطاغية إلى المنفى هذه المرة يا كليمان...

ثم أكملت بصوت منخفض : بل إلى القبر.

ساد الصمت. حتى النار في المدفأة بدت كأنها توقفت عن الاشتعال.

قالت : اذكر أنك أقسمت على هذا أمامي في باريس.

ظل ينظر إليها طويلًا. كان يرى المرأة التي أحبها. ويرى المرأة التي صنعتها الحروب. وهما امرأتان مختلفتان تمامًا.

قال أخيرًا : الانتقام لا يعيد الموتى.

أجابته بسرعة : لكنه أحيانًا يمنع سقوط أحياء جدد.

قال : وهل يكفي موت رجل واحد لإطفاء الحروب ؟

ابتسمت بمرارة.

وهل كان يكفي وجود رجل واحد لإشعالها كلها ؟

⊥

خرج مترنيخ إلى النافذة. نظر إلى شوارع فيينا البعيدة. وفكر :

كم هو غريب هذا العالم.

الرجال الذين يقررون مصير الملايين يعودون ليلًا إلى غرفهم محملين بأسئلة شخصية صغيرة لا تستطيع الجيوش الإجابة عنها.

ما قيمة النفوذ إذا عجز عن إصلاح قلب مكسور ؟ وما قيمة السياسة إذا عجزت عن إنقاذ إنسان واحد من حزنه ؟

كان يدرك أن التاريخ يراقبه. لكن لورا كانت تذكره بأن القلب أيضًا يراقب.

وهذان القاضيان نادرًا ما يصدران الحكم نفسه.

⊥

سألت زميلتنا الكونت : وكيف كان استقبال الأمير مترنيخ للحبيبة المولع بها ؟

ابتسم الكونت ابتسامة رجل يعرف أكثر مما يقول.

ثم أجاب : الحب يا سيدتي لا يقاس بحرارة اللقاء، بل بما يتركه الفراق في الأرواح.

توقف قليلًا.

استقبلها كما يستقبل الإنسان جزءًا من شبابه عاد إليه فجأة.

لكن المشكلة أن الشباب لا يعود وحده.

إنه يعود ومعه الأخطاء ، والوعود القديمة ، والندم ، والأسئلة التي ظننا أننا دفناها منذ زمن.

وأضاف : لقد كتب الكثير عن تلك المرحلة الثانية من علاقة مترنيخ ولورا أبرانتيس.

الكثير جدًا.

وربما اختلط فيها الحب بالسياسة، والوفاء بالمصلحة، والحنين بالخوف. لكن من يستطيع أن يفصل هذه الأشياء عن بعضها ؟

حتى القلوب الكبيرة تعيش حروبها الخاصة.

⊥

أطرق الكونت برأسه قليلًا ثم قال : تعلمت من تلك السنوات شيئًا واحدًا.

رفعنا أبصارنا نحوه.

قال : إن الأمم تشبه البشر. لها لحظات جنونها. ولها لحظات حكمتها. ولها جروحها التي لا يراها أحد.

ثم ابتسم ابتسامة هادئة.

أما الحب ، فهو الشيء الوحيد الذي ينجو من الهزائم العسكرية ، ومن سقوط الإمبراطوريات ، ومن تغير الخرائط.

قد يتغير شكله. قد يتحول إلى ذكرى أو ندم أو صداقة أو حتى عداوة. لكنه لا يختفي تمامًا.

فما يدخل القلب يومًا لا يغادره إلا مع آخر نبضة.

نظر إلى النار المشتعلة أمامه.

وقال بصوت خافت كأنه يحدث نفسه أكثر مما يحدثنا :

بعض الناس لا يكونون فصلًا في حياتنا... بل يكونون العصر كله.

لورا ومترنيخ

حين تتحول القلوب إلى ميادين للحروب

قلت للمؤرخ الجالس إلى جواري ، الكونت دي جورنوالد ، ونحن نتابع ارتعاش ألسنة النار في الموقد الحجري العتيق ، بينما كانت أمطار المساء تضرب زجاج النوافذ كأنها أصابع القدر تدق أبواب الذاكرة:

هذه يا كونت جورنوالد امرأة بلا شرف.

رفع الرجل رأسه ببطء ، وأطرق قليلاً كمن يستدعي من ظلمات السنين وجهاً غابراً، ثم قال بصوت هادئ يشبه صوت الأوراق اليابسة حين تداعبها الريح :

وبلا عقل أيضاً... وبلا ضمير أحياناً... لكنها كانت تملك جمالاً يكفي لأن يجعل الرجال يخطئون في حساباتهم، والملوك ينسون عروشهم، والدبلوماسيين ينسون خرائط أوروبا المعلقة فوق جدران مكاتبهم.

ثم ابتسم ابتسامة قصيرة مضطربة وأضاف :

لقد كانت جميلة جمالاً مذهلاً، والجمال يا صديقي نعمة حين يقترن بالحكمة، وكارثة حين يسكن قلباً لا يعرف الحدود.

قلت : وهل ذهب الأمير مترنيخ إلى موعدها ؟

أطرق الكونت لحظة، ثم قال : ربما يكون من الأفضل أن نترك لورا نفسها تجيب عن هذا السؤال.

فتح دفتراً قديماً أصفر الأوراق ، وقال : هذا جزء من يومياتها.

ثم بدأ يقرأ :

وعدني أن يأتي في الرابعة عصراً ، لكنه لم يصل إلا في الخامسة. ساعة كاملة... ستون دقيقة من الانتظار أطول من عمر بأكمله.

كنت أتقلب فوق جمر الشوق كما تتقلب الورقة اليابسة فوق نار خفية. كنت أسمع دقات الساعة المعلقة على الجدار كأنها مطارق تهدم ما تبقى من صبري.

الرابعة والربع... الرابعة والنصف... الرابعة وخمس وأربعون دقيقة...

كنت أعرف أن زوجي يراقبني. كنت أشعر بنظراته خلف الأبواب، خلف الستائر، خلف الصمت نفسه. لكن ليذهب إلى الجحيم.

لقد قال له بونابرت ذات يوم، ضاحكاً ببروده المعتاد :

لا تفسد أيام العزيزة لورا بالغيرة والرقابة. إنها لم تُخلق لسجن الزوجية. امنحها حرية الحياة إذا كنت لا تريد طلاقها.

أي نصيحة قاسية تلك التي يتلقاها زوج من إمبراطور أوروبا نفسه!

كان كليمان يعرف هذا جيداً. كان يعرف أنني لن أبقى داخل الأسوار التي يبنيها الرجال حول النساء باسم الفضيلة.

ومع ذلك تركني تلك الساعة الملعونة معلقة بين اليأس والأمل. بين الخوف والرغبة. بين الكبرياء والضعف.

لكنه جاء أخيراً...

وحين دخل الغرفة شعرت كأن العالم كله قد عاد إلى الدوران.

أغلق الكونت الدفتر برفق.

قلت :وماذا عن الزوج المغدور بشرفه؟ ماذا فعل ؟

تنهد الكونت طويلاً.

بعض الرجال يصرخون حين يُجرح كبرياؤهم، وبعضهم يقتلون ، وبعضهم ينكسرون في صمت. وكان زوج لورا من الصنف الأخير.

صمت قليلاً ثم تابع :

طلب من بونابرت أن يعيده إلى حاميات الحدود البعيدة ، بعيداً عن باريس ، بعيداً عن القصور والهمسات والرسائل والعطور.

وافق نابليون على الفور. بل ربما وافق بسرعة أكبر مما ينبغي.

كان الإمبراطور يريد لتلك العلاقة أن تتجذر. أن تستنزف عقل مترنيخ وقلبه معاً. أن يتحول أكثر رجال أوروبا دهاءً إلى عاشق مشوش الفكر.

فالسياسة تعرف منذ القدم أن الحب أحياناً يؤدي المهمة التي تعجز عنها الجيوش.

وفي الوقت الذي كانت فيه لورا تحيط مترنيخ بسياج مشتعل من عاطفتها الجامحة ، كانت الجيوش الفرنسية تتحرك عبر السهول والأنهار نحو بروسيا.

كانت المدافع تتقدم بينما كان قلب مترنيخ يتراجع.

وكان الأمير النمساوي يدرك شيئاً فشيئاً حجم الورطة التي تورط فيها.

جلس ذات ليلة وحده في مكتبه بالسفارة النمساوية في باريس، وأمام عينيه تقارير الجواسيس والخرائط العسكرية.

حدق طويلاً في الورق ثم قال لنفسه : ماذا فعلت ؟

أنا سفير الإمبراطورية النمساوية. أنا عين فيينا في باريس. كيف سمحت لقلب امرأة أن يسرق انتباه رجل كلفته بلاده بمراقبة مصير قارة بأكملها ؟

هل أصبحت رسائل العشق أهم من تحركات الجيوش ؟ وهل يمكن لرجل دولة أن ينجو إذا سمح لعواطفه أن تقود عقله ؟

كان يعرف الجواب.

ولهذا اتخذ قراره القاسي. امتنع تماماً عن زيارة لورا.

وأصدر أوامره إلى رجال السفارة : إذا حضرت السيدة لورا ، فلن تدخل.

كانت أوامره صارمة كالسيف.

فالرجال الذين يقودون الدول يعرفون أن بعض المعارك تُحسم بالانسحاب لا بالمواجهة.

لكن لورا لم تكن تعرف الانسحاب. كانت تشبه أولئك الذين إذا أُغلقت أمامهم الأبواب، حاولوا اقتحام الجدران.

وحين وصلها الخبر، شعرت كأن العالم انهار فوق رأسها.

راحت تدور داخل غرفتها كلبؤة جريحة.

كانت تسأل نفسها : كيف يستطيع أن يفعل هذا ؟ كيف يختفي رجل كان بالأمس يقول إن عينيّ هما وطنه الوحيد ؟ هل تعب مني ؟هل وجد امرأة أخرى ؟ هل كان كل ما قاله مجرد كلمات جميلة يتسلى بها الرجال ؟

ثم كانت تجيب نفسها بنفسها : لا... لا يمكن... إنه يحبني. لا بد أن هناك سبباً آخر.

لكن القلب حين يخاف لا يصغي إلى المنطق. والحب حين يتحول إلى خوف ، يتحول سريعاً إلى جنون.

بدأت تكتب الرسائل. رسالة بعد رسالة. يوماً بعد يوم. حتى أصبحت الكتابة عندها نوعاً من التنفس.

قالت في إحدى رسائلها : أنت كما كنت في أول ليلة رأيتك فيها...

معبود قلبي الوحيد. ولكن بحق السماء، دعني أراك ولو مرة واحدة. قل كلمة واحدة فقط تفسر هذا الفراق.

لماذا تعذبني ؟ أي ذنب ارتكبته ؟ هل تريد أن أدخل الدير ؟ هل تريد أن أقتل نفسي ؟

إنك لا تدري ما أنا فيه من عذاب. إذا كنت تريد لي الموت، فاقتلني بيدك التي أحببتها.

هز الكونت رأسه بأسى وقال : الحب الذي يفقد كرامته يتحول إلى استجداء، والاستجداء يقتل الحب أسرع مما يقتله النسيان.

قلت : وهل رد عليها مترنيخ ؟

قال : أحياناً كان يعيد الرسائل دون أن يفتحها. وأحياناً كان يتركها دون جواب.

وكان الصمت أشد قسوة من الرفض. لكن لورا لم تستسلم.

بدأت تخبئ رسائلها داخل باقات الزهور. وأحياناً كانت تتركها ليلاً تحت باب السفارة المغلق. كانت رسائل مفتوحة يقرأها الخدم والحراس والموظفون.

وكانت باريس مدينة لا ترحم. فالناس يغفرون الجرائم الكبيرة، لكنهم لا يغفرون السقوط المعلن.

ذات ليلة وجد حارس السفارة رسالة تحت الباب.

قرأها. ثم بصق على الأرض في اشمئزاز.

وقال : مستحيل... مستحيل أن تكتب زوجة أحد قادة جيش فرنسا هذه الكلمات.

وكان الرجل صادقاً في دهشته. فبعض الاعترافات لا تجرح أصحابها فقط ، بل تجرح صورة المجتمع كله عن نفسه.

بعد سنوات طويلة نُشرت الرسالة في كتاب تناول حياة زوجها. الزوج الذي أخذ العار منه ما لم تأخذه الحروب. الرجل الذي ذبل ببطء حتى فقد عقله، ثم فقد حياته.

فالإنسان قد يحتمل الفقر والمرض والمنفى، لكنه أحياناً يعجز عن احتمال انهيار الصورة التي عاش عمره كله يحاول حمايتها.

مرت الأعوام. وشاخت الوجوه. وسقطت إمبراطوريات. ومات نابليون. وتغيرت خرائط أوروبا .

لكن الذكريات لا تعترف بسقوط الدول.

وفي الأيام الأخيرة من حياة مترنيخ، كان المرض قد أرهق جسده ، وأصبحت عيناه الغائرتان تحملان ذلك التعب الذي لا تصنعه السنوات وحدها، بل تصنعه الذكريات أيضاً.

كان إلى جواره صديقه القديم كونستنتان.

وحين أخبره بأمر الكتاب والرسالة المنشورة، طلب مترنيخ أن تُقرأ عليه.

بدأ الرجل يقرأ. لكن الأمير العجوز رفع يده فجأة.

وقال بصوت متعب :

كفى يا عزيزي كونستنتان...

كفى.

صمت قليلاً، ثم تابع : أقسم لك أن شيئاً مما ذكرته هذه المرأة المسكينة لم يحدث قط.

ثم نظر عبر النافذة نحو الأفق البعيد وقال :

إن الإنسان قد يخطئ في الحب ، وقد يضل الطريق، لكن الله يأبى أن أهبط إلى ذلك الدرك من الانهيار النفسي والعقلي الذي هوت إليه لورا.

وسكت. وبقي صامتاً طويلاً. ربما لأنه تذكرها. وربما لأنه غفر لها. وربما لأن الشيخوخة تعلم البشر حقيقة لا يدركونها في شبابهم :

أن الناس لا يكونون أشراراً دائماً ، بل يكونون أحياناً ضعفاء فقط.

قال الكونت دي جورنوالد وهو يغلق الدفتر الأخير :

ما أكثر الحروب التي غيرت خرائط العالم ، وما أكثر قصص الحب التي غيرت خرائط القلوب.

ثم أضاف : تعلمت من هذه الحكاية ثلاث حكم لا أنساها.

الأولى : أن القلب إذا قاد العقل أضاع الطريق، وإذا قاده العقل وحده فقد طعم الحياة.

والثانية : أن الحب الذي يطلب امتلاك الآخر ينتهي إلى تدمير صاحبه قبل غيره.

أما الثالثة : فهي أن الإنسان يستطيع أن ينجو من هزيمة الجيوش، لكنه قد يعجز عن النجاة من هزيمة نفسه.

خارج النافذة كانت الأمطار قد توقفت. وبقيت باريس القديمة غارقة في ضباب المساء. مدينة عرفت الحب والخيانة ، المجد والانكسار ، الإمبراطوريات والقبور.

أما لورا ومترنيخ فقد أصبحا مجرد اسمين في كتب التاريخ.

لكن التاريخ، على خلاف ما نظن ، لا يتذكر أسماء المنتصرين وحدهم. إنه يتذكر أيضاً أولئك الذين هزمهم قلب واحد.